

رحلة الأمير ردولف إلى الشرق

الجزء الثالث

رحلة..
الأمير رودلف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

احمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء ابو شادى

رحلة..
الأمير رودلف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الجزء الثالث

لصاحب السمو الإمبراطوري والملكي
الأمير رودلف

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦

الفهـــــرس

مقدمة المترجم

يتابع الأمير ردولف رحلته بعد أن غادر مصر ، فيصل الى يافا ، ويتابع طريقه للقدس الشريف ويزور أماكنها المقدسة ويصف لنا مشاعره ومشاهداته وصفا شائقا، ثم يتجه الى بيت لحم ثم أريحا وشواطيء البحر الميت ثم يتخذ طريقه ليبحر من يافا الى بلاده بعد أن يكون قد زار عين السلطان والعوجه وعبد القادر وبيسان وتل طابور والناصرة •

وقد ألحقنا بالجزء الأول دراسة مطولة نسبيا عن بعض الأفكار الواردة في هذه الرحلة ،ويهمنا في هذا الجزء التركيز على نقاط بعينها •

القدس وما حولها: من أحق بها؟ قراءة في فكر الأمير ردولف:

● يقول الأمير انه منذ اللحظة الأولى التى دخل فيها فلسطين ، وهو يحس أنه يرى رأى العين كل ما قرأه في العهد القديم : فالبشر هم البشر ـ الذين قرأ عنهم في العهد القديم ـ بملابسهم وملامحهم وأشكالهم ، مع أن البشر الذين رآهم لم يكونوا في غالبهم من اليهود ، وانما من المسيحيين والمسلمين، حتى البدو رأى فيهم ـ كما رأى في بدو سيناء من قبل ـ نفس الملامح والصفات الفيزيقية التى قرأ عنها في العهد القديم عن المجتمع في عهد السيد المسيح عليه السلام • وان كانت رؤية الأمير رودلف صحيحة ، فان معنى هذا أن اليهود الذين رآهم أو في أية مرحلة تاريخية أخرى ليسوا هم بنى اسرائيل وحدهم ، وانما هناك كثيرون من غير اليهود من بنى اسرائيل أيضا ، وهذا هو المنطق الطبيعي للأمور ،

فاليهود في عهد السيد المسيح (عليه السلام) لم يكونوا جميعا من المنكرين لرسالته ، فقد اعتنق ــ بالتأكيد ــ عدد كبير منهم المسيحية وان كان هذا لا ينفي أنهم من ناحية السلالة أو العرق من بني اسرائيل ، وعندما ظهر الاسلام اعتنق عدد كبير من اليهود ومن المسيحيين أيضا الدين الاسلامي ، وهذا لا ينفي أنهم من ناحية العرق أو السلالة من بني اسرائيل • فمن قال ان بني اسرائيل هم اليهود فقط؟ ان كانت الملاحظات الأنثروبولوجية التي أوردها الأمير ردولف صحيحة ، فمن المؤكد وفقا لمنطق الأمور ، ووفقا لمسار التاريخ ، أن يهود اليوم هم أقل الناس تمثيلا لدم بني اسرائيل • لقد ذكر الأمير أنه رأى وجوها من المسيحيين والمسلمين في فلسطين ، تذكره تماما برسوم فناني العصور الوسطى عن شخوص عاشت زمن المسيح عليه السلام • ورأى في ملامح مسيحيات كثيرات ملامح المجدلية واليهوديات في عهد المسيح عليه السلام •

● وتابع الأمير ردولف ببساطة ووضوح مسيرةالديانات السماوية الثلاث على أرض فلسطين ، فذكر أن اليهودية كانت هي الديانة الأولى التي دعت الى عبادة اله واحد حق ، وأن المسيحية رغم جدة بعض تعاليمها الأخلاقيــة ، الا أنها في أصولها ووجودها ليست الا تكملة للديانات الشرقية القديمة وأولها اليهودية ، ثم ظهر الاسلام فأمكنه « أن يحافظ على الديانات السامية Semitic القديمة الشرقية في أنقى صورة وأكثرها بعدا عن الخرافة» وذلك على حد تعبيرالأمير ردولف، ونؤثر في هذا الصدد ايراد عبارة الأمير بنصها الانجليزي :

« The ancient Eastern Semitic religions have been preserved in their purest and most incorrupt form by Islam ».

ويعزو الأمير ردولف لهذا السبب نفسه انتشار الاسلام بين شعوب هذه المنطقة بمن فيهم اليهود فنجده يقول :

« ولأن الاسلام منبثق من هذه الديانات السامية القديمة ولأنه لم يهدف الا ان يكون استمرارا لها بين الأجناس نفسها، فقد استطاع ــ لهذا السبب ــ أن تكون له السيادة في هذه المنطقة وأن ينتشر منها الى شعوب أخرى كثيرة مختلفة » .

ويورد الأمير في رحلته هذه ما هو معروف مطروق لا نجد مبررا لتكراره هنا ، وهو أن الأماكن المقدسة المسيحية ، بل واليهودية لازالت موجودة في غالبها كما هي لم يلحقها تدمير ، في ظل الحكم الاسلامي المتعاقب وذلك لسبب بسيط واضح وهو انها في غالبها مقدسات اسلامية أيضا، فالنبي موسى عليه السلام يحظى بتقدير وتوقير كل المسلمين ، ومن ثم فان كل ما يرتبط به وبشريعته يعد أيضا مزارا للمسلمين كما بين هذا الرحالة الأمير من واقع مشاهداته ، والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام يحظى بالتوقير والتبجيل أيضا باعتباره روح الله وكلمته وباعتباره نورا من نور ، وباعتباره نبيا كريما بعثه الله ليهدي به البشرية ، وهي نظرة لا تختلف كثيرا عما تقول به بعض المذاهب المسيحية ذاتها ، ومن ثم فان معظم ما يتعلق به يعد أيضا مزارا اسلاميا .

فكثير من التراث اليهودي المرتبط بأماكن العبادة المسيحية غير مقبول لدى المسيحيين ، لنستمع الى الأمير ردولف وهو يقول :

« ويقص اليهود بعض الحكايات المتعلقة بكل بقعة وكل خطوة ، وكان علي ــ مثلي في ذلك مثل المسافرين الآخرين ــ أن أستمع اليهم ، لكنني أشكر الله كثيرا لأنني نسيت معظم حكاياتهم ، وأحيل القارىء المتسامح الى تجرع جرعات من الدواء الذي يتجرعه مرضى الهوميو Homoeopathic . فهو رغم بشاعة مذاقه يمكن تحمله أكثر مما يمكن تحمل حكاياتهم » (ص ٢٧٤ من النص الانجليزي ، ص٣٧ ، جـ٣ من الترجمة العربية) .

وبطبيعة الحـــال ، فان كل التراث اليهـــودى المرتبط بأماكن العبادة الاسلامية غير مقبول لدى المسلمين ٠

نخلص من هذا الى أن المسلمين وحدهم هم المقبولون لدى أصحاب كل الديانات والمذاهب ليحكموا القدس ويشرفوا على مقدساتها ٠

ويحدثنا الأمير ردولف أن ثلة من العساكر الأتراك تطوف المدينــة ، لتضمن لكل أصـــحاب دين أو مذهب أن يجــروا احتفـــالاتهم ويؤدوا طقوســـهم ، دون ازعاج من أصـــحاب الديانات والمذاهب الأخرى ٠

أهى واقعة لتزوير الآثار ؟

ويحدثنا الأمير أنه بينما كان يتابع طرائده فى رحلة صيد ، قرر التوقف لارهاق ألم به ولأنه شعر أن المطاردة لن تجدى شيئا لتحقيق ما يريد ، لكنه اكتشف أثنـــاء التـــوقف أثرا مقدسا شائقا على حد قوله ، ولندعه يقص علينا حـــكاية هذا الاكتشاف وما به من دلالة : « ٠٠٠ لقد اكتشفت فى مدخل الجحر كتاب التراتيل البروتستنطى ، ربما حمله الى هنا بعض حيـــوانات الجحـــور وفقا لعادة كثير من الحيوانات التى تحفر مساكنهـــا ٠ وكان فى الكتاب ـ عـــلى أية حال ـ تراتيل وصلوات انجيلية (بروتستنطية) أصلية ، ودعوات للامبراطور وليم ، وبشكل عام كان المجلد بحـــالة جيدة من الداخل والخارج ، الا أن على بعض أوراقه بعض بقع دماء ٠ ان الله وحده هو الذى يعلم كيف وصل هذا الكتاب الأوربى لهذا الموضع الموحش وكيف فقده صاحبه ، ربما كانت عظامه قد تحللت فى مكان قريب فى هذا الدغل الكثيف » ٠

والبحر الذى يشير اليه الأمير موجود بالقرب من أريحا ٠ ولا يمكن فهم هـــذا النص الا اذا عرفنـــا أن البروتســـتنط

وغيرهم من اصحاب المذاهب المسيحية الحديثة (غير الاورتوذكس والكاثوليك) محرومون من زيارة بعض الاماكن المسيحية المقدسة في القدس الشريف وما حولها ، وليس هنا مجال مناقشة مدى صواب ذلك فهو أمر يخص الكنائس المسيحية ، لكن الذى يهمنا في هذا المجال أن الامير نفسه قد تشكك في امر وجود هذا الأثر الدينى البروتستنطى (الانجيلى) مخبأ في جحر في مكان مهجور في الأرض المقدسة، ونتساءل : أيكون دس هذا الأثر الدينى في هذا المكان قد تم بفعل فاعل تمهيدا لكشفه او ادعاء كشفه في يوم من الايام . ومن ثم بناء حقوق تاريخية للبروتستنط على هذا الأساس ؟! ان الآثار لا تكذب لكن أمر تزويرها قائم !

اليهود والغش :

ولا أدرى تفاصيل الأسباب التى تجعل الأمير ردولف يربط « الغش » دائما باليهود ، فهو يقول انه عندما دخل الحى اليهودى بالقدس ، وجد الحوارى قذرة غاصة بالحوانيت ووجد « ... الرجال اليهود يبيعون ويشترون ويساومون ويغشون ... » (ص ٢٨٨ من النص الانجليزى — ص ٥٨ من الترجمة العربية ، جـ ٣) بل انه عندما يجد مسلما يغش فانه سرعان ما يشبهه « بابن عمه اليهودى » .

ملاحظات على الترجمة :

عند ترجمة الجزء الخاص بالقدس الشريف استخدمنا كلمة المقدِّس (بتشديد الدال وكسرها) لزائر الأماكن المقدسة ان كان مسيحيا ، وهي كلمة شائعة على اللسان المصرى ، واستخدمنا كلمة « زائر » ان كان المشار اليه شخصا مسلما ، علما بأن الكلمة التي استخدمها الأمير هي « الحاج » . ومن المعروف أن شعيرة الحج بالنسبة للمسلمين قصر على الكعبة الشريفة وغيرها من المناسك في مكة المكرمة .

وعند استشهاد الأمير بنصوص من العهدين القديم والجديد فضلنا الرجوع مباشرة للترجمات العربية المتاحة ، وقد رجعنا ـ على نحو خاص ـ لانجيل متى الذى اعادت ترجمته لجنة معتمدة من البابا كيرلس السادس بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقصية فى كل أفريقيا والشرق (سنة ١٩٧٢) .

ـ ترجمنا عبارة the son of God بعبارة « المسيح عليه السلام » فالعبارة الأخيرة مقبولة من المسيحيين والمسلمين على سواء ، وأثبتنا المقابل الانجليزى مراعاة للأمانة العلمية ، وعلى أية حال فعبارة the son of God لم ترد فى نص الرحلة الا مرة واحدة .

والله من وراء القصد .

د . عبد الرحمن الشيخ

الفصـــل الســـابع

الوصـــول الى يافا ـ ملاحظات عن الاســلام والديانات الاخــرى ـ التسيح عــلى على ضــفاف الاردن ـ الحجاب على وجوه المسيحيات واليهوديات والمسلمات ـ كنيسة يافا ـ المتسولون ـ الرملة ـ لترون ـ بير الجب وما حوله ـ خانات المقدسين ـ أبو جوش ـ موطن المكابيين ـ خــرافات يهــودية مقززة ـ عمــواس ـ يهــود اوربا فى الفلسطين العبرية ـ كنيســة القيامة ومسجد عمر ـ التعصب ـ الأتراك يحمون كل أصحاب المذاهب والديانات ـ القـــديس جيمس ـ الحـــاخامات اليهود والفريسيون ـ المعبد اليهودى ـ العلية • أحفاد عثمان (رضى الله عنــه) فى القــدس ـ جبــل الزيتون ـ الصيد ـ رسوم بوسنجر ـ تعليقــات المترجم •

الوصول الى يافا :

وجدنا أنفســنا فى صــباح الثامن والعشرين من شهر مارس فى عرض البحر • وكان السؤال الذى يتكرر غالبا : ألم يظهر البر بعد ؟ فقد كنا ننتظر بفارغ صبر أن نرى البر الآسيوى لنترك البحر ، وأخيرا رأينا ـ بعد الظهر تكوينــات جبال فلسطين (يهوذا Judaea) (*) وقد لفها ضباب أزرق، وتلا ذلك رؤيتنا للرمال الصفراء والتل المدرج الذى تقبع فوقه مدينة يافا Jaffa .

(★) استخدم الارشيدوق فى أكثر من موضع فى رحلته هذه مسميات العهد القديم ، لا التعاطف منه مع اليهود ، فالحقيقة انه اشار اليهم ـ رغم دبلوماسيته الشديدة ـ

وعند النظرة الأولى بدت المنطقة جرداء منعزلة : مجرد كثبان رملية وجبال داكنة لا تسر رؤيتها العين • وعلى أية حال ، فعندما اقتربت سفينتنا من يافا ذات العبق التاريخي رأينا سياجا من خضرة جميلة ـ أشجار كثيفة وبساتين تقع في وسطها يافا • ولأنه ليس ليافا مرفأ لاستقبال السفن الكبيرة ، فقد كنا مضطرين الى أن نوقف سفينتنا على بعد مناسب من سياج الصخور التي تحيط بالمدينة من ناحية البحر •

= باعتبارهم عناصر ماكرة ، كما اشار الى بعض قصصهم عن ارتباطهم بأرض فلسطين بأنها قصص مقرفة تدعو للغثيان ، وقد يكون مبالغا بعض الشيء ، لكننا نذكر ما يطالعه القارىء في هذا الفصل والفصول الاخرى ، أما اطلاق اسم يهوذا على تلال فلسطين ، فلا يمكن فهمه دون المامة تاريخية موجزة وقد رجعنا في ذلك للمقدمة التي كتبتها لجنة ترجمة انجيل متى (١٩٧٢) المكونة من الانبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي والاستاذ زكي شنودة والدكتور مراد كامل والدكتور باهور لبيب والاستاذ حلمي مراد ، والجدير بالذكر ان ما كتبناه يتفق مع ما تردده المراجع التي كتبها مسلمون •

« ••• نشأ الجد الأول لليهود وهو أبو الانبياء ابراهيم في مدينة اور (جنوب العراق الآن ـ المترجم) التي كانت تقع جنوبي بلاد بابل في بلاد ما بين النهرين ، وكانت مدينة أور مركزا للعبادة الوثنية في حين كان ابراهيم يؤمن بوجود الله الواحد ولا يتعبد الا له ••• فرحل الى حاران ، ولما مات ابوه نزح مع قومه الى أرض كنعان المعروفة اليوم بأرض فلسطين •• وانحدر ابراهيم الى مصر زمن المجاعة ثم عاد الى فلسطين ، ولما توفي ورثه ابنه اسحق وهو الجد الثاني لليهود وانجب اسحق ابنه يعقوب • وكان لقبه اسرائيل ، ولذلك لقب اليهود كذلك ببني اسرائيل ، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، كان من بينهم يوسف الذي استقر في مصر وأصبح الوزير الأول لفرعون فاستدعى آباه واهله •• واستفحل امر سلالتهم وظهر من بينهم قوي هو موسى النبي فهاجر الى فلسطين ، وتاهوا في سيناء اربعين سنة ، ولما بلغوا مشارف فلسطين مات موسى (عليه السلام) فتولى أمرهم يوشع بن نون •• وبعد موته تولى حكم اليهود حكام عرفوا بالقضاة وكان آخرهم صموئيل النبي ١٠٩٥ ق•م ثم أعقبه داود النبي ثم أبنه سليمان الحكيم ١٠٠٠ ق•م •• وانقسم ملكه بعد موته •• وفي ٤٧٠ ق•م • أغار « تغلث فلاسر » على أسباط اليهود في شرق الأردن وأخذهم في السبي ، وفي ٥٨٨ ق•م هاجم ملك بابل نبوخذ نصر القدس وساق اليهود جميعا الى الاسر ، فحاكوا سادتهم الكلدانيين في بلاد ما بين النهرين وعبدوا آلهتهم •• وفي عهد (دارا) الفارسي الذي سمح لهم بالعودة ، كانت دولتهم ولاية فارسية اذ كان اغلبهم من سبط يهوذا فدعيت بلادهم باليهودية •••• » •

من هذه الفقرة الأخيرة يمكن فهم السبب الذي جعل الأرشيدوق يطلق على جبال فلسطين وتلالها اسم تكوينات جبال يهوذا •• ان العهد القديم معشش في رأسه ـ (المترجم) •

وبمجرد وصول حاكم يافا(والى يافا)ومعاونيه وقائدالمنطقة لسفينتنا، وصل رضا باشا معاون القائد General Adjutant وكان السلطان قد أحسن بارساله — على وجه السرعة من اسطنبول (النص : القسطنطينية)، ليرافقنا طوال رحلتنا فى الأماكن المقدسة ، وكان هؤلاء المسئولون الكبار مختلفين بشكل واضح عن المسئولين الذين قابلونا في مصر ، اذ كانت ملامحهم أعرض وبشرتهم أشد بياضا — وبعبارة واحدة : كانوا أقرب الى الشخصية التركية • وكان علينا أن نعلم حالا أن هذه المنطقة مختلفة عن مصر من شتى النواحي • وقد سلمني رضا باشا — وهو رجل مثقف مرح — خطابا من السلطان ، وقضينا معه أياما طيبة ، وقد احتفى بنا هذا الرجل اللطيف معشره احتفاء يفوق الوصف، وكان علينا أن نكون ضيوفه خلال اقامتنا وقد حظينا — بفضل صداقته — بقافلة طيبة وخيام ممتازة وكثير من التسهيلات التى خففت عناء الرحلة •

وبعد تبادل التحية ، ذهب هؤلاء السادة الأتراك (رضا باشا ومن معه) الى الساحل، ليتخلصوا من ملابسهم الرسمية الخاصة بمثل هذه المناسبات ، وليجروا بعض الترتيبات المختلفة • وجذفنا لنصل للساحل بعد مغادرتهم مباشرة لكننا لم نكن هذه المرة فى قواربنا ، وانما فى قوارب ذات قاع عريض مسطح يستخدمها أهل البلاد — وذلك لخطورة الساحل • وسرعان ما ابتعدنا عن سفينتنا ميرامار بفضل المرشد الماهر الذى يسيطر على الدفة ، وبفضل التجذيف القوى لرجاله ، لن نرى ميرامار مرة أخرى طوال فصل وسيكون مرساها أثناء ذلك فى ميناء بيروت وهو أقرب ميناء آمن ، وصحبنا فى رحلتنا للأماكن المقدسة اثنان من ضباط البحرية هما الكونت كورنسكى Chorinsky واللفتنانت ساخس Sacks . •

وسرعان ما وصلنا لمنطقة الشعاب المرجانية الشهيرة

بخطورتها ، ولما كان يتعين علـى القارب أن يمر فى مجـرى مائى ضيق تحفه صخور خشنة ، ففى وسع المرء ان يتصـور مدى خطورة هذا الممر اذا كان المناخ سيئا والامواج هائجة ، لقد كان البحر أثنـاء عبـورنا الممر المـائى شـفافا هادئا كالزجاج ، وقد وصلنا دون مشاكل لدرجات (سلالم) ميناء يافا الصغير الذى لا يصلح الا لاستقبال المراكب الصغيرة ٠

لقد قابلتنا بلاد جـديدة بالنسـبة لنا تختلف تماما عن مصر واكثر اصطباغا بالصبغة الشرقية وأثرى فى الوانها ٠ كل شىء فى هذه البلاد كان جديدا بالنسبة لى ، فقـد أصبح الشرق الآسيوى الخالص أمامى للمرة الأولى ٠ وقد شـيدت يافا على مدرجات فوق تل ، والمنازل الدنيا ـ مثلها فى ذلك مثل الصخور الكائنة بينها ـ تغسلها أمواج البحر ، فالأحياء العربية المشيدة من الطين لا وجود لها هنا ٠ لقد تركنا وراءنا فى أفريقيا تلك الجـدران الطينيـة والأسـقف المسـطحة ، واستخدام الأخشاب فى البناء كما فى مدن (وادى النيل) ٠ فالتشييد بالأحجـار سمة من سمات الشرق الآسـيوى الثرى الذى لابد أن يكـون متأثرا بالخبرات العبرية الماضـية فى الأراضى المقدسة ـ وكان هذا جليا أمامنا من خلال المبـانى الصلدة القوية بقبابها الدائرية عـلى الأسقف ، والمـدرجات المسطحة والبوابات ذوات العقود ، والمتسمة بالجهامة ـ وكلها مشيدة من أحجار مكعبة رمادية دون استخدام مواد لاصـقة أو ملاط ٠

فالخطوة الأولى على تربة الأراضى المقدسة تذكر ـ فى المدن ـ بذكريات الحكم المنضبط للمملكة اليهودية وحكمـة الملك سليمان (عليه السلام) أو بأيام السيد المسيح (عليـه السلام) عندما كان يجلس بين حوارييه His apostles يعـم ـ على الدرجات الحجرية فى الميدان المكشـوف ، كما تذكر بالصور الريفية التى تمر أمام عيون العقـل ، والتى كانت

ترفرف حولنا ونحن نقرأ الكتاب المقدس فى طفولتنا . فابراهيم الخليل The patriarch Abraham الملك البدوى (النبى البدوى)(*) الذى بقطعانه وخيوله الجميلة وخيامه الظريفة ونسائه الخاليات من العيوب ــ الرجل كبير السن بحكمته وتجاربه وعلمه ، العاقل ذو الحديث بالمفعم بالأسرار والمعانى الباطنية والحكمة العملية . الرجل الذى أنجب الجنس النبيل (أبو الأنبياء) · لا يمكن أن يوجد الا فى الشرق ، ولا يمكن أن يكون مقره الا هذه الأرض ·

وتغير الزمن ، وغير الدين أشكاله . لكن من بين كل الطقوس والشعائر الشرقية الكثيرة المتشابهة فى طبيعتها ، والمتشابهة فى أفكارها الأساسية ــ لا نجد الا اليهودى ــ واليهودى وحده باقيا محتفظا بطابعه ومحتفظا بعقيدته كما هى ، رغم تشتت اليهود فى كل بقاع الأرض ، فاليهودى وعقيدة الايمان باله واحد حق The true Jehovah أرسل نبيه موسى (عليه السلام) ، بل وحتى البشر(**) أنفسهم ــ الجنس

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم ·

(**) كثيرة هى المراجع التى تتحدث عن خرافة الجنس النقى ، فالجنس النقى تماما لم يعد له ــ من الناحية العلمية ــ وجود ، لكثرة الهجرات والحروب ، والتزاوج بين الشعوب والحضارات تزاوجا سلميا أو مفروضا بالقوة ، ومع هذا فكثيرة أيضا هى المراجع التى تؤكد خرافة زعم اليهود بانهم جنس نقى ، ونفضل هنا نقل مقتبسات مما أوردته لجنة ترجمة انجيل حتى ١٩٧٢ التى سبق ان اشرنا اليها فى حاشية سابقة بهذا الصدد :

« ··· مكث ابناء يعقوب فى أرض مصر ٤٣٠ سنة بموافقة فرعون ··· وفى ٤٧٠ ق·م أغار « تغلت فلاسر » ملك اشور على الاسباط القاطنة شرق الأردن وهى راوبين وجاد ومنسى ·· وساقها عن بكرة ابيها نحو بلاده حيث عاشت هناك فى السبى عيش العبيد ·· ثم أغار ملك اشور ····· ولما استولى الاسكندر الاكبر على البلاد سنة ٣٣٢ ق·م ، خضعوا لحكمه وحكم قواده من بعده ، وخضعوا للرومان منذ سنة ٥٨ ق·م الذين ولوا على البلاد رجلا يهوديا من أصل أدومى يدعى أنتيباترا وقد حقد عليه اليهود وقتلوه فحل محله ابنه هيرودوس الذى عينه القائد الرومانى ماركوس انطونيوس ملكا (تابعا) على اليهود ، وقد اصطبغت أيامه كلها بالدماء بسبب جشعه ووحشيته واتسم عهده بالتفنن فى أساليب القتل وابادة الناس بالجملة ، وقد ولد السيد المسيح فى أواخر عهده ··· وارسل الرومان ٧٠ م جيشا حاصر أورشليم (القدس) واقتحمها ودكها دكا واضرم النار فى الهيكل ·· وأعمل السيف فى رقاب اليهود ·· فانتهى بذلك تاريخ دولة اليهود الى الأبد ··· وكان يهود الجليل خليطا من شعوب كثيرة ، وكان منهم اليهود ومنهم الهيروديون ، ومنهم الرومانيون ·· ومع أن يهود اليهودية ويهود الجليل كانوا يتكلمون الآرامية ، فان يهود الجليل كانوا ··

المختار ـــ رغم انتهاء وجودهم السياسي وخروجهم من البلاد nave Lost Country لايزال كل ذلك موجودا بطابعه القديم ".

= " ينطقون بها بلهجة مختلفة ... وكانت السامرة في الشمال الغربي من اليهودية وكانت عقائد أهلها قد اختلطت بالكثير من العقائد والطقوس الوثنية .... » .

هذا ما أوردته اللجنة انفة الذكر وقد أحالت كل كلمة في مبحثها هذا العهد القديم والاناجيل مقدمة انجيل متى/ترجمة ١٩٧٢ ، ص ص ١٨ ـ ٢٢ .

واذا تركنا النقول السابقة وكلها من مصادر دينية محورها العهد القديم والاناجيل ، وطالعنا بعض الدراسات العلمية ، وجدنا ان ارثر كسلر وهو يهودي من أب مجرى وأم نمساوية يتعرض في كتابه The thirteenth tribe « القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم » الذي ترجمه المترجم القدير احمد نجيب هاشم (صدر في سلسلة الالف كتاب ـ عدد ١٠١) ـ ليهود اليوم ذاكرا أنهم في غالبهم ليسوا من سلالة يعقوب عليه السلام وليسوا من الاسباط الاثني عشر ، وانما من سلالة سكان دولة الخزر اليهودية التي ظهرت في العصور الوسطى .. وقد بلغت أوج مجدها في الفترة الممتدة من القرن السابع الى العاشر الميلادي وامتدت من البحر الاسود الى بحر قزوين ومن القوقاز الى الفولجا وكانت عاصمتها (اتل) على نهر الفولجا .

« ... وأدرك الخزر دقة موقعهم بين قوتين عظميين : الامبراطورية الرومانية الشرقية المسيحية من جهة ، والامبراطورية العربية الاسلامية من جهة اخرى ، فكانوا هم بمثابة القوة الثالثة في عصرهم . وحرصا على حماية دولتهم من ضغط المسيحية والاسلام فقد رأى « الخاقان » الذي حكمهم في منتصف القرن الثامن الميلادي اعتناق الديانة اليهودية هو وحاشيته وشعبه ، ويلاحظ انه حتى قبل تحول الخزر الى اليهودية كانت بلادهم المأوى الطبيعي لهجرات جماعات اليهود التي وفدت اليها هربا من اضطهاد الحكام البيزنطيين ، بل كانت أشبه بوطن قومي لليهود ، كما ضمت بلاد الخزر أيضا عددا كبيرا من المسلمين والمسيحيين ، يقول المؤرخ العربي المسعودي الذي أطلق عليه الأوربيون لقب هيرودوت العرب « وفي المدينة « اتل » خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية (أي الوثنيين) ، فاما اليهود ، فالملك وحاشيته والخزر من جنسه ـ وكان تهود ملوك الخزر في خلافة هارون الرشيد . وقد انضاف اليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم ـ وذلك ان ملك الروم نقل من كان في مملكه من اليهود الى دين النصرانية وأكرههم .... وقد الف ملك الخزر في جيشه فرقة ضاربة من المسلمين وهؤلاء يعرفون « باللارسية » وهم قبيلة من نحو بلاد خوارزم وكان في قديم الزمان بعد ظهور الاسلام وقع في بلادهم جدب ووباء ، فانتقلوا الى ملك الخزر ، وهم ذوو بأس وشدة وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه ، واقاموا في بلده على شروط بينهم : احدها اظهار الدين والمساجد والاذان ، وثانيها ان تكون وزارة الملك فيهم وثالثهم انه متى كان للملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ويحاربون سائر الناس غيرهم » . وكانت هناك علاقة وثيقة بين الخزر ومؤسس الاسرة السلجوقية فقد كان « توركاك » أبو سلجوق قائدا في جيش خاقان الخزر .

ولعب الخزر دورا مهما في السياسة الدولية وحرص حكام الامبراطورية الرومانية الشرقية على التحالف معهم طيلة الفترة الممتدة من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادي ، وكثيرا ما اشترك الخزر في حروب ضد أعداء الامبراطورية البيزنطية التي تدين لهم بكثير =

* * * * * * * * * * *

* * * * * * * * * * *

= من الفضل فى بقائها صامدة امام الهجمات المتتالية التى شنها عليها الفرس من جهة والعرب من جهة اخرى ، ووقف الخزر سدا منيعا حال دون زحف العرب نحو القوقاز ، ويقول بعض المؤرخين انه لولا وجود الخزر فى الاقليم الشمالى من القوقاز لطوق العرب بيزنطة ــ بيد انهم اقاموا منذ أواخر القرن الثامن الميلادى علاقات ودية مع الخلافة الاسلامية وحرصوا على المحافظة عليها ٠

وفى عصر ساد فيه التعصب والجهل والفوضى فى أوربا الغربية وغلبت البربرية على الشعوب التى أحاطت ببلاد الخزر فى شرقها ، كان الخزر شعبا عصريا متقدما متحررا من الاحقاد القومية ومفتوحا لمختلف الثقافات والأديان له حكومته العادلة المتسامحة وفنونه التى تاثرت بالفنون الفارسية الساسانية وله جيشه القوى وتجارته الواسعة ٠ وكثيرا ما تواجد التجار الخزر فى القسطنطينية والاسكندرية بل وفى جهات اخرى نائية مثل « سامراء » و « فرغانة » (٢) يقول المسعودى : « جرى العرف فى اتل عاصمة الخزر أن يكون بها سبعة قضاة منهم اثنان للمسلمين يفصلان فى القضايا طبقا للشريعة الاسلامية ، واثنان للخزر يفصلان فى القضايا بحكم التوراة ، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية وواحد للصقالبة والروس وسائر الجاهلية (الوثنية) يحكم بأحكام الجاهلية ٠ وهى قضايا عقلية فاذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا الى قضاة المسلمين فتحاكموا اليهم وانقادوا الى ما توجبه شريعة الاسلام ٠٠٠ وفى بلاد ملك الخزر خلق من المسلمين تجار وصناع غير « اللارشية » ٠٠٠ لعدله وامنه ولهم مسجد جامع والمنارة (المئذنة) تشرف على قصر الملك ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن ٠

وقد قضى الروس على امبراطورية الخزر فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، ودمروا عاصمتهم « اتل » ، ولكن الخزر ظلوا محتفظين باستقلالهم داخل حدود أضيق عن ذى قبل ، شأنهم فى ذلك شأن ما حدث لامبراطورية النمسا والمجر عقب الحرب العالمية الاولى ، التى قضت على هذه الامبراطورية ولكنها لم تقض على النمسا بوصفها دولة مستقلة اجل ــ ظل الخزر محتفظين باستقلالهم الى أن سقطت بلادهم فريسة لغارات المغول بزعامة « جنكيزخان » فى منتصف القرن الثالث عشر ــ وجدير بالذكر أنهم كانوا قبل هذا الغزو وبعده قد أرسلوا فروعا كثيرة من سلالتهم الى البلاد الصقلبية التى لم تقع فى يد المغول ، وساهموا بالتالى فى تكوين جاليات يهودية كبيرة فى شرق أوربا ٠

ويوضح كيستلر فى النصف الثانى من مؤلفه هذا أثر الخزر فى تكوين اليهود المعاصرين ، وخلاصة ما ينتهى اليه ان غالبية اليهود الحاليين ليسوا من اصل آسيوى ، أى انهم ليسوا من الاسباط (القبائل) الاثنتى عشرة نسل يعقوب الوارد ذكرها فى التوراة ، بل انهم ينحدرون من الخزر (القبيلة الثالثة عشرة) ، الذين انتشرت ذريتهم فى كثير من دول شرق أوربا وخاصة بولندة والمجر وروسيا ــ أى انهم لم يجيئوا من فلسطين بل من القوقاز ــ بعبارة أخرى ٠ فان مصطلح معاداة السامية لم يعد له معنى فى ضوء هذه الحقيقة ٠

وفى هذا الصدد لم يفت المؤلف ان يشير الى ان الأستاذ ابراهام بولياك اليهودى الروسى الأصل والذى هاجر مع أبيه الى فلسطين سنة ١٩٢٣ ثم أصبح فيما بعد أستاذ =

فاليهودى ينتقم لنفسه — بوحى لا شعورى — بالتأكيد على وجوده (بالتمسك بطبيعته القديمة) • وهو — بوعى منه — يمثل قوة معينة متمثلة فى الذكاء الحاد الذى منحه اياه الشرق • لقد جرد الغرب اليهود من كل شىء وطردوهم وشتتوهم فى كل بقاع العالم لكنه لم يكن قادرا على افنائهم ومع هذا فلا زال اليهود — ذلك العنصر اللحوح much-tried موجودا ويطالب بالعدالة (*) •

--- التاريخ اليهودى فى جامعة تل ابيب واصدر مؤلفات كثيرة منها «تاريخ العرب» و «تاريخ الاقطاع فى مصر» — قد نشر من قبل أبحاثا عن الخزر وتحولهم الى اليهودية ، اثارت بدورها جدلا كبيرا حيث هاجم فيها الفكرة القائلة بانحدار اليهود الحديثين من القبيلة التوراتية وهدم بذلك أسطورة الشعب المختار • يقول الدكتور حسين فوزى النجار : « اذا كان بنو اسرائيل هم شعب الله المختار فقد كان هذا حين كانت رسالة الأنبياء اليهم وحدهم وحين عمت الرسالة انسحب الاختيار الى كل من آمن بالله واليوم الآخر ، اسرائيليا كان أم مسيحيا أم مسلما ، والمختار هو المختار للرسالة وليس للتميز أو التفضيل على البشر » •

كذلك قرر كيستلر أن الأستاذ النمساوى هوجو فريبر اون كوتشيرا (١٨٤٧ — ١٩١٠) اثبت فى بحثه عن الخزر ، أن يهود شرق أوربا ينحدرون منهم ••• •

ارثر كيستلر : القبيلة الثالثة عشرة • الهيئة المصرية العامة للكتاب — الألف كتاب ١٠١ ، ١٩٩١ •

واذا تركنا النصوص الدينية ممثلة فى العهد القديم كما اوردناها فى صدر هذه الحاشية ، والبحوث العلمية كما اوردناها ممثلة فى نقول عن الباحث اليهودى كيستلر ، وعدنا للمنطق الخالص ، فان عددا كبيرا من اليهود — بل الغالبية — قد تحولت فى خاتمة المطاف للمسيحية والاسلام ، وبذا يكون بين المسلمين والمسيحيين من دماء يعقوب (اسرائيل) أكثر بكثير مما فى دماء يهود اليوم من دمه عليه السلام ، وقد لاحظ الارشيدوق ونص فى اكثر من موضع فى رحلته تلك انه رأى فى كثير من البدو والعرب المزارعة فى مصر وفلسطين الملامح نفسها التى لليهود ، •• بل انه عندما واجه بعض مظاهر الغش واللؤم عند العرب أرجع ذلك لقرابتهم لليهود ، قد يكون مخطئا فى هذا لكنه على اية حال رأى فى سحن العرب وملامحهم شبها غير بعيد عن أبناء يعقوب — (المترجم) •

(*) لم ينكر المسلمون على اليهود أو غيرهم فى اية مرحلة من مراحل التاريخ حقهم فى الوجود ، بل لقد أصبح المسلمون هم الذين يطالبون بحقهم فى الوجود ، وقد أورد الأمير ردولف فى اكثر من موضع فى رحلته هذه انه وجد اليهود وسائر الطوائف الدينية تحظى بحرية كاملة فى ظل الدولة العثمانية ، وأن الجندرمة (جنود الدرك الاتراك) كانوا يتسمحون لكل طائفة ومذهب اداء شعائرها بحرية كاملة ، ويرجع ذلك الى أن الاسلام دين يضم بين جناحيه كل المبادىء الأساسية للأديان السابقة عليه بشكل بعيد عن الخرافة — (المترجم) •

لقد خرجت المسيحية من العقيدة اليهـودية وأخـذت من مخزون حكمتها ، فلم تكن تعاليم المسيح (عليـه السـلام) لتثمر الا في أرض كفلسطين لا مكان لها الا في الشرق ، وان كانت المسيحية جديدة في كثير من وصايا وتعاليمها الأخلاقية precepts ، الا أنها في أصولها ووجودها ليست الا تكملة للديانات الشرقية القديمة • والمسيحية التي انتقلت للغرب واستمرت حتى آيامنا هذه تجد مولد أفكارها الأساسية دائما في الشرق • **وقد أمكن للاسـلام أن يحـافظ عـلى الديانات السامية Semitic الشرقية القـديمة في أنقى صـورة وأكثرها بعدا عن الخرافة •**

The ancient Eastern Semitic religions have been preserved in their purest and most incorrupt form by Islam.

فلأن الاسلام متبثق عن هذه الديانات السامية القديمـة ولأنه لم يهدف الا أن يكون استمرارا لها بين الأجناس نفسها ـ فقد استطاع ـ لهذا السبب ـ أن يكون له السيادة في هذه المناطق وأن ينتشر منها الى شعوب كثيرة مختلفة ، وقد أدى هذا الى أن يكون الشرق ثابتا (لم يلحقه تغيير) كجنس بسبب عقيدته • فابراهيم الخليل old Abraham لم يمت ، فاليهودى المجد الشغوف بالمال acquisitive المذكـور في التراث القديم لازال موجودا • وفي المدن يؤاخيه العرب (هم أخوة له) ، وكل الأسرات السامية التي بقيت في ديارها القديمة (بلادها الأصلية) مستمرة في (ممارسة) طريقتها القديمة (في الحياة) •

In the lowns the Arabs are his brethern. and all the Semitic families who remain in the old home Continue in the ancient way.

الشيخ علي على ضفاف الأردن :

ويقطن الشيخ علي في السهول الواسعة على طول الأردن في آلاف من الفرسان الذين يتحركون بحرية ولا يضبطهم ضابط ، وتتكون ثروته من قطعانه ومساكنه ونسائه مستمدا قوته من حكمته وما لديه من كتب في العقيدة والشريعة ، ثمة — اذن — ملك بدوى عجوز على رأس شعب من سلالته • وقد أخبرنا الكتاب المقدس عن حالات كهذه • ففى الشرق لا شيء يموت • فالثورات المحمومة في الغرب تمر دون أن تترك أثرا ، أما في الشرق فكل شيء كما كان منذ عصور بعيدة وسيظل الشرق على هذا النحو ما ظلت الشمس تشرق كل يوم ، صابغة بلون أرجوانى التلال الجرداء والصحراء البرتقالية وسهوب الشرق الشاسعة ، ملقية بلونها الذهبى على الأرض المجيدة — مهد الجنس البشرى •

آمل أن يعذرنى القارىء لهذا الاستطراد ، لأن هذه الأفكار تفرض نفسها على المسافر الذى يصل للمرة الأولى الى الأرض الموعودة promised land •

كان المنظر الذى تبدى أمامنا ونحن على درجات ميناء يافا متألقا وجديرا بريشة فنان • وكانت كل الشرفات والمدرجات والدرجات (السلالم) والنوافذ الضيقة غاصة بالبشر • والملابس هنا أكثر ثراء في الألوان وأكثر لفتا للنظر من الملابس في مصر ، فملابس آسيا الصغرى والملابس التركية وملابس اليهود ذات الطراز القديم ، كل ذلك يمكن رؤيته هنا • أما قمصان (جلابيب) الفلاحين الزرقاء والطواقى البنية فلم نعد نراها في الشوارع هنا ، ولم نعد نرى — كما كنا نرى في مصر أشباه العراه ، كما لم نعد نحس بما احسسنا به في مصر من الفوضى (قلة النظام) • والأثواب (القفاطين) الغامرة الواسعة المثبتة بأحزمة عريضة بهيجة ، والعمائم الضخام — والطرابيش أحيانا ، والجاكتات Jackets أو السترات القصيرة المزينة بالفراء والشبيهة

بالمعاطف والسراويل التى تغطى الركبة ، والنعال الحمر ــ كل ذلك هو أهم ما يلفت النظر فى (هذا) الساحل الآسيوى • وبين أبناء آسيا الصغرى الأصلاء الذين يقيمون هنا، وكذلك بين الدروز تشيع الأزياء التى تذكر المرء بأزياء شبه جزيرة البلقان •

أما النسوة فيلبسن ملابس واسعة ــ جديرة بالتصوير ــ ويضعن ملاءات بيضاء وأغطية وجه (حجابا) بيضا ايضا ــ ويختلف لباس النساء هنا تماما عن لباس نساء مصر • وفى يافا عدد كبير من المسيحيين واليهود ، لذا فقد رأينا عددا من المسيحيات واليهوديات يرتدين ملابس تدل على الثراء ــ يسرن فى الطرقات ، ومعظمهن محجبات حجابا غير مبالغ فيه ، وبعضهن دون حجاب على الاطلاق ، لذا فقد امكننا ملاحظة كثير من الوجوه الجميلة . بل حقا لقد رأينا بينهما وجوها نبيلة : أبشرة بيضاء متألقة وشعر أسود فاحم ؟! لقد كان هذا مما جذب أنظارنا • وبشكل عام فالبشرات فى فلسطين خالية من العيوب خاصة فى المدن ــ أحيانا تميل للصفرة ، لكنها نادرا ما تكون داكنة أو سمراء ، فهذا اللون غير موجود الا بين بعض القبائل البدوية خاصة الجنوبى منها •

كنيسة يافا :

لقد كانت النظرة الأولى على البشر بثيابهم البهيجة المتالقة تعطى احساسا شائقا ، وقد صعدنا الدرجات (السلالم) ببطء فى طريقنا الى دار الضيافة اللاتينية (الكاثوليكية التى تتبع الطقوس اللاتينية) Latin hospice ويختلف العساكر الأتراك بزيهم الأخضر ــ ولهم مظهر مقاتلى آسيا الصغرى ــ من كل الوجوه عن المصريين ، وقد أخلى لنا هؤلاء العساكر ممرا لنمر ، لأن الناس قد تزاحموا حولنا تزاحما شديدا وقد اعتراهم الفضول وحب الاستطلاع ، ودلفنا للكنيسة عبر منزل وصعدنا وهبطنا عددا كبيرا من السلالم (وليس درجات السلالم) • وكان الطريق اليهما

صعبا وقذرا ، وكان علينا أن نمر خلال جو خانق مشبع بالروائح المرعبة والمقرفة • الكنيسة قديمة لكنها غير جميلة وليس فيها ما يجذب ، وعند دخولنا قبلنا صندوق الذخائر المقدسة the relics ونصحونا أن نتلو الدعوات (نؤدى الصلوات) ونحن ممددون على الأرض ، انك ترى في كل خطوة في الأرض المقدسة مواضع مرتبطة بالحكايات المقدسة Sacred legends ، وفي يافا بعض من هذه المواضع • لقد أيقظت الكنيسة المظلمة ، التي تعود للعصور الوسطى ، وضوء المشاعل المتراقص ، وتراتيل الفرنسيسكان التي تلوها بصوت أجش ، وصوت الأرغن ، وكل ما على أرض فلسطين — أيقظ كل ذلك الأفكار التي سادت أيام الحروب الصليبية عندما أقبل مقاتلون شجعان (*) من الغرب البعيد ، حيث تم منحهم البركة هنا للمرة الأولى على الأرض المقدسة — قبل أن يهب ابن الصحراء الباسل الفخور ليدافع عن أرض آبائه ضد الغازى الأجنبي •

(*) نفضل هنا ان ننقل من بعض المراجع الأجنبية ما يبين الأبعاد الحقيقية للحروب الصليبية ، يقول ارنست باركر Barker (ترجمة السيد الباز العريني) :

« منذ سقطت بيت المقدس في يد جيوش عمر بن الخطاب سنة ٦٣٧ م •• وكان الاتصال المستمر بين الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس وبين المسيحيين في الغرب وبقاؤه نشيطا لقرون عديدة ، **انما يرجع الى تسامح الفاتحين المسلمين** ، والمعروف أن شارلمان — بصفة خاصة — كان وثيق الصلة ببيت المقدس ••• وظلت الصلة بين الغرب وبيت المقدس بلا انقطاع حتى القرن الحادى عشر الميلادى •• وفي سنة ١٠١٠ دمر الحاكم بأمر الله الفاطمي كنيسة القيامة وأنهى حماية الفرنجة لها ، وانتقل الى المسيحيين البيزنطيين سنة ١٠٢١ أمر رعاية الأماكن المقدسة (المسيحية) التي ظلت مصدر نزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية حتى بداية حرب القرم في منتصف القرن التاسع عشر للميلاد •• وترتب على على ذلك أن صار قدوم الحجاج من الغرب أمرا شاقا وعسيرا ، فالبيزنطيون ، لا سيما بعد حدوث الانشقاق الديني سنة ١٠٥٤ لم يحرصوا على جعل طريق الحج سهلا ميسورا ، وكان لزاما على البابا فكتور الثاني أن يجار بالشكوى الى الامبراطورة تيودورا ••• » •

ونخلص من هذا النص وامثاله ان الحروب الصليبية كانت في جانب من جوانبها ، وفي مرحلة من مراحلها — نوعا من الصراع المسيحي المسيحي ، وليس المسيحي الاسلامي • لقد كانت صراعا بين الكنيستين اليونانية واللاتينية للسيطرة على الأماكن المسيحية المقدسة وفي ثنايا رحلة الأرشيدوق يلمس القارىء بنفسه أن هذا الصراع ظل موجودا حتى بعد منتصف القرن التاسع عشر (زمن رحلتنا هذه) •

. . . .

. . . .

** ومن اسباب الحروب الصليبية ايضا كما اشار باركر « حرص الكنيسة الكاثوليكية على تحقيق حلمها بقيام كنيسة عالمية تخضع لسلطانها ... وقد أطلق رجال الدين اسم الحروب الصليبية على هذه الحروب ، لتبرير المصالح والمطامع التي حدث أن اتفقت على ما اختاروه من وسائل ، على الرغم من ان هذه الحروب إنطلقت لتحقيق اغراض مخالفة لاغراض الكنيسة، مثال ذلك ما كان من طموح الأمير المغامر والابن الأصغر (لجويسكارد) الحريص على أن يقيم لنفسه امارة في الشرق ، ويعتبر بوهمند من هذا الطراز ، وثمة أيضا مصلحة المدن الايطالية التي حرصت على أن تحصل على منتجات الشرق بسعر رخيص وبطريق مباشر ... والنوع الاول الذى يمثله بوهمند الطامع فى تأسيس امارة فى الشرق يعتبر القوة المحركة التي كفلت النجاح للحرب الصليبية الأولى ... بينما النوع الثانى (الذى تمثله مصلحة المدن الايطالية) يعتبر الحليف القوى المتين الذى بفضله وحده استطاع بلدوين الأول وبلدوين الثانى ان يقيما مملكة بيت المقدس ... فالحماس الدينى المضطرب غير المنظم لم يكن له فى الحروب الصليبية الا تأثير ضئيل بل يكاد لا يكون له أثر اطلاقا ، أما الحماس الذي اتخذه ووجهه النورمانى الماكر والبندقى او الجنوى الذى لا يقل عنه مكرا ، فهو الذى أدى الى نتائج ثابتة ، والواقع أن انشاء الامارة أو اقامة المستودع لم يكن الا من اغراض الأمير أو التاجر .. وليس معنى هذا انكار العامل الدينى ، غير أنه ينبغى أيضا التسليم بأن شيئا من الاغراض الدنيوية اجتذب الى الحروب الصليبية جموع الدهماء ، فما حدث فى مواطنهم من المجاعات والاوبئة دفع الناس الى الهجرة الى الشرق ابتغاء الخروج من الضيق ، وأملا فى الخلاص منه ، ففى سنة ١٠٩٤ وقع وباء انتشر من الفلاندر الى بوهيميا ، وفى ١٠٩٥ حدثت مجاعة فى اللورين ، فلا عجب أن تدفق نحو الشرق سيل من الهجرة مثلما يجرى فى الأزمنة الحديثة من الانسياب نحو منجم من مناجم الذهب جرى اكتشافه حديثا ، وهذا السيل اشتهر بما يحمله فى ثنايا المياه العكرة من الوسخ الزائد والافاقين والمفلسين والأبقين ... ومع هذا فقد ألقى البابا اوربان الثانى فى كليرمونت الى الجنوب من فرنسا بعد الحملة الصليبية الأولى جاء فيه أنه ينبغى تجريد جيوش المسيحيين لقهر المسلمين ... وكانت الحروب الصليبية فى بدايتها مشروعا فرنسيا ، والمملكة التى أقامها الصليبيون بالشرق كانت أيضا فى جوهرها مملكة فرنسية فى لغتها وعاداتها ورذائلها وفضائلها ، ومن الطبيعى أن تكون فرنسا مهدا للحروب الصليبية ؛ لأنها كانت ... تستطيع أن تقدم من النبلاء الاقطاعيين حشدا لم يكن شديد الارتباط بمكانته فى المجتمع ومستعدا لأن ينطلق فى مغامرة كبيرة ، بالاضافة الى ان فرنسا قاست كثيرا مما وقع بها من المعارك والحروب ، وعانت مما حدث بها من الوباء والمجاعة ، فالهروب فى هذه الاحوال انما يلقى ترحيبا » على أن الحروب الصليبية لقيت عند النورمان بصفة خاصة قبولا طيبا .. فقد اشتهروا منذ القدم بحبهم للحركة والانتقال .. وقد استطاعوا أن يجدوا لهم منفذا فى حملة موجهة لبيت المقدس ... والحروب الصليبية تتفق آخر الأمر مع تلك النزعة فى امتلاك أراضى جديدة .. وهى من خصائص الأمراء النورمانديين ... أما المانيا ، فان ما اصابها من التمزق بسبب الحروب الداخلية .. جعلهـا تسفر من الصليبى ... » نكتفى بهذه الاقتباسات المعبرة التى كتبها مؤلف غربى . ص ص ١٤ ـ ٢٤ ـ (المترجم) .

وبعد ان منحنا البركة وانتهى العزف الموسيقى اتخذنا سبيلنا خارجين بصعوبة بين جحافل المتطفلين المحملقين الذين احتشدوا فوق السلالم وفى الممرات الضيقة ، وكانت غرف هذه الكنيسة ـ التى تشبه الأقبية ـ غير جارية الهواء ، كما كانت رائحتها كريهة ، وفى هذه الغرف يسكنون ، وهى بمثابة منزلهم أو ديرهم أو كنيستهم • فليحذر أى انسان من أن يكون تحت سقف وهو فى فلسطين خاصة فى فصل الربيع •

كانت خيولنا عند البوابة • وكان من الصعب ان تسير قافلتنا متجمعة معا وسط هذا الزحام من البشر الشرقيين ـ وكان بينهم عدد من اليهود ـ الذين احدثوا جلبة وضوضاء • واخيرا فتحت لنا فرقة من الخيالة التركية الطريق فسرنا يتبعنا خدمنا ، والعساكر من خلفنا • وبهذا النظام سرنا راكبين خلال بعض الشوارع المرصوفة بملاط رقيق بدلا من الاحجار ، ومررنا بسوق خارج المدينة تعج بالقاذورات وكان الطريق فى بدايته يمر بين بساتين وتحف به أشجار كثيفة وحدائق برتقال مثمرة ، كانت تئن تحت حملها من الثمار • الفارق بين مناخ الساحل المصرى ومناخ ساحل فلسطين واضح تماما •

ففى نهاية فبراير شاهدنا جمع البرتقال فى القاهرة أما فى يافا ، فان جمع البرتقال لم يكن قد بدأ حتى نهاية شهر مارس ، وسرعان ما اختفت من أمام أنظارنا البساتين العطرة ، ودخلنا فى سهل رتيب تتناثر فيه الخضرة الداكنة ، ولم نر فيه الا حقولا لم تزرع بطريقة جيدة ، وبئرا تسحب منها المياه وقليلا من النخيل ومواضع حجرية ومقابر للمسلمين غير منظمة ، ورأينا على البعد على حافة المشهد القاحل القمم الزرقاء لجبال يهوذا Judaea • ولم نقابل بشرا سوى الفلاحين بملابسهم البهيجة يرعون قطعان الجمال والماعز ، كما رأينا متسولين هم أسوأ متسولين رأيتهم ، فهم أسوأ

— حتى — من متسولى مصر ، لقد أصيب بعضهم بشلل بشع · أبشع أنواع الشلل الذى يمكن تخيله ؛ وكثيرون منهم مصاب بجذام حقيقى كالذى جاء وصفه فى الكتاب المقدس ·

والزروع فى الحقول تفتقد اللمسة المدارية التى فى زروع وادى النيل ، فأنت فى حقول فلسطين قد تظن أنك فى حقول أوربية · ألحق أن كل شىء تركناه وراءنا لم يعد له وجود ، ورأينا كثيرا من طيور اللقلق (بتشديد اللام وفتحها) واقفة فى الحقول لكن مظاهر الحياة الحيوانية الأخرى قليلة ·

وسرعان ما وصلنا الى بعض القرى الصغيرة البائس منظرها ·

الرملة ولترون :

ومررنا أثناء الطريق بمقابر وأبراج مراقبة لعساكر الدرك الأتراك (الجندرمه Gendarmerie) ، وفى غضون ثلاث ساعات وصلنا لمدينة صغيرة ، هى مدينة الرملة ، Ramleh وهى مدينة مهدمة وقذرة قذارة لا توصف ، فما كان من قافلتنا الا أن التفت حولها ، وهذا هو الوضع مع أنها عادة ما تكون المحطة الأولى فى طريق المقدسين الى بيت المقدس (الحجاج الى بيت المقدس) · ولم نكن راغبين فى التوقف بالقرب منها ، ورأينا أن نجد فى السير الى قرية لترون Latrun التى تقع عند سفح الجبل ·

وقد ظهر سكان الرملة على مدى البصر بملابسهم اليهودية القديمة المبهجة ، أما المسيحيون القليلون القاطنون فيها (الرملة) فهم — فى الأساس — تابعون للكنيسة الأورثوذكسية اليونانية ، وتدفق سكان المدينة خارجين منها ليحملقوا فينا وتبعوا قافلتنا لفترة طويلة ·

وبعد أن ابتعدنا عن الأراضى المجاورة للرملة ، بدأت شخصية المنطقة تلبس لبوسا آخر ، فقد بدأ الطريق يهبط بنا رويدا الى الأسفل من التل ليفضى الى واد عريض ترتفع الجبال من عند طرفه البعيد (طـرف الـوادى) • وكانت الحقول مغطاة هنا وهنـاك بالأحجـار وتبدو قطع الأحجار المصقولة اللامعة واضحة بين الأشـجار الدائمة خضرتهـا • وبالقرب من مقبرة أحد الشيوخ (الأولياء) أطلقت طلقتين ناجحتين مكنتانى من اصطياد طائرين من طيور الحجل جميلين، وأرجلهما طويلة حمراء • وبعـد غروب الشمس مبـاشرة وصلنا لقرية لترون Latrun الواقعة بين الصخور والشجيرات دائمة الخضرة عند سفح سلسلة التلال • ان منظرها جـدير بالتصوير • وأقمنا معسكرنا الجميل بالقرب من بقايا قلعة قديمة يصعب تحديد تاريخ بنائها • لقـد كان معسـكرنا مدينة خيام تركية بكل ما فى الكلمة من معنى ، وكانت الخيام مصنوعة من مواد جميلة وزودت بكل ما هو مريح • ولم يكن من الممكن الا أن نتذكر أيام سليمان المجرب Old Soliman وتوفرت فى معسكرنا دواب التحميل ، معظمها بغال أو خيول صغيرة أما خدم الضيافة فدروز من لبنان (والدروز هم عبدة الشمس Sun-Worshippers) فتشبثوا بمواقعهم بالقرب من المعسكر بين الصخور •

والسيد هوارد Howard الذى يعمل كممون ، كان قد قبل أثناء حياته دائمة التغير اسما انجليزيا كمـا قبـل الحماية الانجليزية ــ مع أنه شرقى صميم ، داكنة بشرته ، وهو يعيش كمترجم ومقاول لتمـويل القـوافل والرحلات بالمؤن ، ومقره بيروت • وقد تعلمنا أن نقدر جهوده الدءوبة وصفاته الممتازة فى الأيام الصعبة التى ألقينا فيها واجبات ثقالا عليه • وقد ألحق السيد هوارد بالقافلة اثنين من البدو، أحدهما بربرى a Moor خطف وهو صبى فى أفريقيا وهو الآن يتجول مع قبيلة عربية آسيوية ، والثانى بدوى أردنى

أصيل له ملامح أوزبية واضحة ـ وذلك ليحفظا لنا الصندوق المخصص لحفظ طيور الحجل • وكان كلا الرجلين يرتديان عباءتين بيضاوين مخططتين سميكتين من أوبار الجمال • وهذا النوع من العباءات هو المعتاد بين القبائل الآسيوية •

وقد خرجت مع عمى مساء بصحبة هذين البدويين لنبحث عن حيوانات ابن اوى ، وتجاوزنا القرية وعبرنا الاسوار وسياج الاشجار ووصلنا الى بركه ماء • مع اننا سمعنا أصوات ابن اوى تاتينا من بعيد ، الا اننا لم نر ايا منها قبل اطباق الظلام خاصة ان القمر لم يكن له وجود • فعدنا نعس سالكين الطريق نفسه الذى لم يكن مريحا حتى وصلنا لمعسكرنا • ووقفت بعض الأشباح خارج لترون Latrun تراقبنا بيقظة •

ويقال ان اسم هذه القرية قد اشتق من الكلمة اللاتينية Latro وانها كانت مسقط رأس اللص التائب ديسماس Dismas .. كثيرا من التراث يرتبط غالبا بكل قرية هنا ، وبعض حكايات هذا التراث جميلة وجليلة وهناك ما يبرهن على صدقها ، لكن كثيرا منها لا يمكن تصديقه البتة •

وعندما عدنا لمعسكرنا وجدنا عشاء كاملا فاخرا فى خيمة الطعام الواسعة ، وبعد القهوة التركية مباشرة نعمنا بنوم مريح •

وفى صباح اليوم التالى استيقظنا جميعا مبكرين ، فجمعت الخيام وحملت فوق البغال وبدأت القافلة فى الحركة ، مصحوبة بصهيل الخيول ورنين أجراس البغال وصياح الذين يقودون هذه الحيوانات ، وفى البداية كان الطريق يخترق واديا ضيقا تغطى المنحدرات التى تحفه صخور وشجيرات دائمة الخضرة ، وطبيعة الحياة النباتية فى هذه المناطق ، هى طبيعة الحياة النباتية فى منطقة البحر المتوسط ، فهى كالتى يلقاها

المرء في سواحل اسبانيا واليونان وايطاليا والمناطق الغربية من الشمال الافريقي خاصة مراكش • وفي فلسطين، فان هذه المنطقة النباتية (نطاق نباتات البحر المتوسط) ضيقة وتختفي بالتدريج عند الوصول للقدس ، والى الشرق من بيت لحم Bethlehem تحل منطقة الاستبس النباتية التي تميز وسط آسيا محل منطقة نباتات البحر المتوسط •

بير الجب وما بعده :

وبعد أن تجاوزنا بير الجب Bir-Egyub (بضم الجيم وتسكين الباء) القديم ، مررنا عبر وادي علي بالقرب من بقايا مسجد قديم الى حيود (حروف) التلال وكان منظر هذه التلال نمطيا متشابها فلا شيء أكثر من صخور بيضاء لامعة يفصلها عن بعضها وبعضها الآخر أشجار شوكية • وتبدو لنا هنا وهناك منازل آيلة للسقوط أو خرائب ــ بين الصخور ، ولم نر الا قليلا من الجروف ، وان كنا رأينا كثيرا من الألواح الحجرية الناعمة تماما على منحدرات التلال •

وراح عدد كبير من النسور والصقور يحلق في الهواء وراحت تطلق أصواتها المميزة ، لكننا لم نر فوق الشجيرات ولا بينها الا القليل من الطيور ، وبين الحين والحين كنا نرى طيور الحجل ، تجرى برشاقة صاعدة المنحدرات ، وبعد ساعتين من الرحلة حاولنا التسلل للامساك بالأيائل ، deer-stalking على قمم التلال ، مصحوبين بالعرب الذين يعملون كمساعدي صيد لنا •

ولما صعدنا التلال تكشف أمامنا منظر الوديان والمسيلات، وهو منظر جميل ، وظهرت لنا الحياة النباتية نفسها التي وجدناها في جبال زانطة Zante وبعيدا الى الشرق رأينا قمم الهضبة التي تقع عليها القدس ، وكذلك بعض منحدرات.

هذه الهضبة ذات اللون الأصفر الداكن ، كما رأينا بداية سلسلة التلال الداخلية وهي مختلفة تماما .

وسرعان ما عدنا الى طريق القافلة فالسير بين الصخور والكتل الحجرية والشجيرات الغاصة بالأشواك التي يصعب اجتيازها أو التوغل فيها ، كما أننا لم نجد طيور الحجل ، أما الطيور الجارحة التي كانت لا تكف عن التحليق فلم تسمح لنا بالاقتراب منها . ولما عبرنا الحيد ridge ، بدت المنطقة أكثر بؤسا وخرابا فقد أخلت الشجيرات الخضراء مكانها للحشائش الجافة ، وتخلت الصخور عن مكانها للأحجار المكسرة ، وامتد الوادى العريض أمامنا وانحدر الطريق اليه متعرجا كثعبان .

استراحات المقدسين (الحجاج) :

ومررنا بخانات المقدسين (زائرى القدس) ، وكانت مهدمة خربة كما مررنا بحدائق الزيتون التي ذكرتنا بفوندات fondas الجبال الاسبانية ، ورأينا قرية أبو جوش Abu Gosh التي كانت تقطنها في بداية هذا القرن أسرة شيخ يحمل الاسم نفسه وكانت تسبب رعبا للحجاج . وبعد ذلك رأينا على البعد قرية (؟) Soba وهي مدين (؟) Modin القديمة موطن المكابيين Maccabees (*) .

خرافات يهودية مقززة :

وتعلق بعض الحكايات اليهودية بكل خطوة ، وكان على — مثلي في ذلك مثل المسافرين الآخرين — أن أستمع اليهم لكنني كثير الشكر (لله) لأنني نسيت معظم حكاياتهم وأحيل القارىء المتسامح الى تجرع جرعات من الدواء الذي يتجرعه

(★) نسبة الى يهوذا المكابى الذى قاد حركة لطرد اليونانيين من أورشليم (القدس) فى الفترة من ١٦٦ الى ١٦٠ قبل الميلاد . انظر : أطلس الدارسين للكتاب المقدس ، نشر دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط — القاهرة ، ١٩٩٤ — التعليق على الخريطة رقم ١٧ .

مرضى الهوميو homoeopathic فهو ــ رغم بشاعة مذاقه ــ يمكن تحمله اكثر مما يمكن تحمل حكاياتهم .

وفي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وصلنا بعد رحله طويلة لباطن وادى Kuloniye العريض وتقع قرية على سطح التل تحمل الاسم نفسه . وفي ادنى منطقه في الوادى يوجد فندق اوربى من طابق واحد لاستقبال المقدسين (حجاج بيت المقدس) . وفلسطين أرض مألوفة للسائحين ، فعلى طول الطريق تجد قوافل الحجاج الى بيت المقدس . ان فلسطين ــ والامر كذلك ــ مثل سويسرا لكنهـا منتجع دينى ان صح التعبير .

ففي سويسرا يستغلون السائح الراغب في الاستمتاع بالجمال ، وهنا يستغلون ايمانك واعتقادك ليحولوهما الى مال .

لقد توقفنا في Kuloniye لأن وصولنا للمقدس سيكون ــ كما حدد ــ بعد الظهر ، ورحنا نضيع الوقت بين توقفنـا والوقت المحدد لدخول القدس في التجول عند سفوح التلال ، ولم نر الا بساتين زيتون داكنة خضرتها فوق مدرجات التلال وأحيانا شجيرات وصخورا ، وقد سفعت شمس منتصف النهار الحارقة وجه المنطقة القاحل ، وقد سحبنا أنفسنا بشق الأنفس لنصعد بعض المنحدرات الشديدة فلم نر من الحيوانات البرية الا حيوان كسار البندق nutcraker والأرنب البرى السورى الداكن . وأطلق الدوق الكبير النار على هرة بائسة puss لكنه لم يجدها بين الصخور ، ولم يكن هويوز Hoyos أفضل حظا مع الضباع في الجانب الآخر من الوادى ، أما بالنسبة لى فقد أطلقت بندقيتى على بعض السحالى الضخمة السوداء البغيض منظرها ، وهى متوفرة عند كل صخرة في المناطق الصخرية بفلسطين .

أصبحت الحرارة لا تحتمل فعدنا جميعا بسرعة الى خان المقدسين (الحجاج) ، وتناولنا افطارنا في ظل شجرة زيتون الوارد ذكرها في البقعة التي تقع فيها عمواس Emmaus في العهد الجديد بالقرب من البقعة التي قتل فيها داود David جالوت Goliath • وكان قنصلنا العام الكونت كابوجا Count Caboga قد خرج من القدس ليقابلنا وناقشنا معه بشغف خطتنا لليوم التالى • وبعد الانتهاء من الافطار لبسنا جميعا ملابسنا الرسمية كاملة full uniform والتقى بنا هنا رجال الدين من كل المذاهب المسيحية والمترجمون من القنصليات ، ومن ثم اتجهوا معنا للقدس (الشريف) حيث الاستقبال الكبير فى انتظارنا •

الى القدس الشريف :

الطريق متعرج على طول المنحدر التلى الواقع فوق الهضبة وبدأت الشجيرات وكل آثار الحياة النباتية تختفى رويدا رويدا حتى انعدمت وبدأت الصحراء الصخرية المقبضة ـ انها الأرض الكريهة (*) ان المرء لا يستطيع أن يبعد نفسه عن هذا الشعور • ان المنطقة كلها تبدو ـ على نحو فريد ـ حزينة ، لكنها عظيمة في الوقت نفسه ، وتأخذ بتلابيب المرء مشاعر غريبة خفية غامضة •

المقدسون (الحجاج) من كل صقع وكل طبقة راكبين حميرا أو حناطير (عربات تجرها الدواب) ـ كثيرون منهم رجال تعسون men of ruined fortunes ـ وهناك اليهود أيضا الذين أتوا من أقصى بقاع العالم ، وقبل أن نصل الى قمة الهضبة أقبل اثنان من الفرنسسكان Franciscans يهرولون نحونا ، أما الأول فهو راعى تراسانتا Terra Santa وهو راهب سمين ذو لحية سوداء ضخم الجثة مفعم بالحيوية ،

(*) النص The accursed land (المترجم) •

ولد في تسكانيا ، وقد ذكرني منظره بأبطال العقيدة (المسيحية) البواسل الذين سبقوا الصليبيين (المقاتلين الصليبيين) في المعركة حاملين الصليب عاليا وحاثين الفرسان على الأعمال البطولية ، أما الثاني فهو من بوهيميا Bohemian وقد بذل غاية الجهد ليسيطر على بهجته وهو يتحدث معي ، لأنه الآن سيتحدث بلغته الأصلية للمرة الأولى منذ عدة سنوات • وقد حيانا الراهبان بحرارة وسارا في ركبنا • والفرنسسكان في الأرض المقدسة هم الممثلون ـ بكل ما في الكلمة من معنى ـ للكنيسة الكاثوليكية Latin Church ، وهم مقاتلون شجعان يدافعون عن عقيدتهم وهم يدافعون عن حقوق المقدسين (الحجاج) الفرنسسكان أمام أصحاب المذاهب والعقائد الأخرى •

لقد تسلقنا التل فامتدت أمام نواظرنا هضبة القدس القاحلة ، وعلى البعد بدت لنا جبال وادي الأردن زرقاء مخضرة ، وكانت السمة العامة للمنظر هي القحولة وكان اللون الأصفر الداكن هو السائد ، وألقينا نظرتنا الأولى على القدس : المبنى الضخم للكنيسة الروسية بقبابها الخمس ، جبل الزيتون ، والى اليمين دير الصليب اليوناني • لم نستطع حتى الآن رؤية المدينة نفسها •

وفي الطريق قوس نصر ضخم يحمل كتابات مجرية (هنجارية) ، وقد وقفت جماعة من اليهود الى جوار قوس النصر هذا حاملين الشعارات ويغنون النشيد الوطني • وقد أحاط بنا يهود بلادنا (مواطنونا من اليهود) وراحوا يمتدحوننا ، ويتحدثون الينا الأحاديث المعتادة محدثين جلبة • لقد كانوا اسرائيليين حقيقيين من شمال المجر • وكان الواحد منهم يلبس قفطانا Caftan وحذاء عاليا ، وطاقية من المخمل

velvet cap وللواحد منهم لحية مفتولة . يمكنك أن تتصور نفسك في قرية كارباثية Carbathian Village .

وتبعتنا جماعة اليهود هذه عند مواصلتنا السير ، وكان الطريق — على الجانبين — مزدحما بالناس : يهود من كل البلاد ، مسيحيون من آسيا الصغرى ، يونانيون ، مقدسون (حجاج) أوربيون ، نساء مسيحيات شرقيات بعضهن بغير حجاب وبعضهن محجبات جزئيا (حجاب غير كامل) ، وأكثر البسة النساء لفتا للنظر هو لباس اليهوديات العجائز ، وبالاضافة لهؤلاء هناك القبط والسائحون الانجليز بمنظرهم الخارجي غير المهندم أبدا (كأبيات الشعر غير الموزونة) والمسلمون من البلاد المختلفة والمتسولون المشلولون والعرجان وخليط يستعصى على الوصف من كل أنحاء المعمورة — كل أولئك يتسكعون في الطرقات بلا هدف وينظرون الينا بفضول .

كنيسة القيامة ومسجد عمر :

وتوقف الموكب في صف (طابور) منتظرا وصولنا للنقطة التي يتحتم على المرء أن يدخل بيت المقدس منها ، فسجد كل شخص ليصلي برأس عارية ، وأصبح أمامنا بيت المقدس The Holy Zion بحوائطه القديمة وقباب كنيسة القيامة Church of Sepulchre ومسجد عمر الفخم .

انها مدينة القدس التي ولدت فيها عقيدتنا (المسيحية) التي بدأت منها أعظم التحولات في تاريخ العالم مع صلب(*) المسيح (عليه السلام) ، انها المدينة التي ترتبط بجدرانها آلاف القصص التي وردت بالانجيل والتي يلتصق بها كل

(*) من المفهوم ان المسلمين يرون أن المسيح عليه السلام قد رفعه ربه الى السماء — (المترجم) .

تراث ديننا (المسيحى) • انها المدينة التى تلطخت أحجارها بدماء أجدادنا ، الصليبيين الأول ـ انها القدس ها هى ذى أمامنا • ان عاطفة غريبة جياشة وحماسا دينيا فائقا يمتلك روح كل حاج (مقدس) هنا ويجعله على شفا التعصب brings him near to fanaticism وقد بدا ذلك لى مفهوما ، لأن القدس ظلت لعدة قرون ـ وستظل الى الابد ـ مركزا لأشد أنواع التعصب • فعقيدتنا وكل التراث الذى تشربناه منذ عهد الطفولة قد انبثق (الآن) ليتخذ له شكلا ووجودا يحيط به عالم من الغموض والجهامة ، محمل بلعنة تطحن كل من يعيش فى هذه المدينة وتسحقه سحقا الى الأبد • فأى شخص يعيش فترة طويلة فى القدس لابد أن يصبح متعصبا ، فمنذ اللحظة الأولى التى يرى فيها المرء هذه المدينة يدخل منطقة من الهوس الغامض قد تسيطر على عقله سيطرة دائمة ،تلك هى المشاعر التى جعلت الصليبيين Crusaders يوجهون كل طاقاتهم اليائسة لكل الحروب الدينية ، مع أن هذا كان يتعارض مع مصالحهم أو حياتهم •

دعنا الآن ـ على أية حال ـ نعد لمدخلنا • لقد ركب بعض جنود السوارى التابعين للقنصلية حاملين هراواتهم الطويلة فى المقدمة ، وكان لباسهم المميز ذا طابع مسرحى ، وخلفهم كتيبة من المشاة الأتراك مع فرقتهم الموسيقية • كان خليطا مدهشا ـ موكب فى القدس بموسيقا تركية وعلم الهلال الفضى يحلق ! ، ثم أتى دورنا خلف هذه الكتيبة التركية ونحن فى ملابسنا الرسمية كاملة ، يحيط بنا الكهنة ورجال الكنائس وموظفو القنصليات وأصحاب المقام الرفيع من الأتراك والمسيحيين • وحفت الشوارع بجموع مزدحمة ، ومن الموكب بمبنى ضخم يقيم فيه المقدسون (الحجاج) الروس • آلاف الفلاحين الروس يأتون للقدس كل عام قبل عيد الفصح وعلى رأسهم كهنتهم وقد حضر منهم هذا العام ـ ألفان ، وقد وقفوا فى مجموعات ينظرون الينا • وقد رأينا

الى جانب فلاحى روسيا نفسها بأثوابهم الواسعة واحزمتهم العريضة ، وبناطيلهم الواصلةللركبة، واحذيتهم التى تغطى حتى سيقانهم • وقبعاتهم الاسطوانية وأنوفهم الفطساء Snub ولحاهم الشقراء وشعورهم الناعمــة المنســدلة المدهــونة ، وجد سلافونيا Slavonia الشمالية الذى لا تخطئه العين ــ رأينا الى جانب هؤلاء الفلاحين رجالا بملابسهم العســكرية الخفيفة التى تحليها الأنواط والأوسمة •

لقد ركبنا خلال هذا الزحام اللافت للنظر حتى وصلنا الى بوابة يافا Jaffa Gate (*) ، فترجلنا عن دوابنــا ومررنا عبر بوابة قديمة رمادية الى داخل المدينة المقدسة •

وهنا وقف البطريرك الكاثوليكى Latin محاطا بعــدد كبير على غير المعتاد من الاكليروس وخريجى الجامعات alumni والرهبان ــ وكلهم يلبسون الأرواب ويحملون الشــموع • وكان البطريرك وتابعــوه يلبســون لحى ككل القسس فى الشرق (يضعون لحى مستعارة) •

وركعنا وقبلنــا الارض وبعــد صــلاة قصــيرة ألقى البطريرك ــ وهو جنوى بالميلاد ــ خطبة بالايطالية ، رددت عليها بكلمــة ألقيتهــا بالفرنســية • ومن ثم شرع القسس والرهبان فى الترتيل وتقدموا ــ مثنى مثنى ــ الموكب الذى تحرك ببطء ، وسرت أنا عن يسار البطريرك ، بينما ســار الدوق الكبير عن يمينه ، وتبعنا الآخرون جميعا حتى الأتراك ذوو المقام الرفيع ، والى جوار الموكب سارت ثلة من العساكر المشاة الأتراك مهمتها فى مثل هذه المناسبات أن تضمن لكل أصحاب دين أو مذهب أن يجروا احتفالهم (ويؤدوا طقوسهم) دون ازعاج من أصحاب الديانات أو المذاهب الأخرى •

(*) المقصود بوابة القدس المسماة بوابة يافا كما لا يخفى على فطنة القارئ ــ (المترجم) •

وشوارع المدينة مظلمة جدا وضيقة ، وهواؤها كهواء الأقبية يعطي شعورا بالاحباط ، فبين اسوار المدينة هواء مسمم بكل انواع الروائح المرعبة ــ ليس ما هو أكثر مدعاة للغثيان منها • وقد رصفت الشوارع ببلاطات غير منتظمة تسبب تعثر العابرين ، وتحتفظ القدس بطابعها العبرى القديم الكئيب Gloomy الذى لم يتغير ، وليس فيها ــ بشكل عام ــ شيء من تألق المدن الاسلامية وأسواقها •

الشوارع مكتظة اكتظاظا شديدا ، والطرق المؤدية الى البوابات ملأى ببشر من كل حدب وصوب : مقدسون (حجاج) أوربيون ، ويهود ومسيحيون ، ومسلمون شرقيون •

وسار الموكب في عدد من الشوارع الصغيرة Small ، وأخيرا وصلنا الى منبسط يؤدى الى مجموعة سلالم متواصلة a flight of steps فهبطناها لنكون في مجاز (ردهة) كنيسة القيامة church of sepulchre • كان الفناء the court مرصوفا ومسورا من جانبين بسورين عاليين ، وفى الجانب الثالث توجد الواجهة الرئيسية facade وبها اعمدة رشيقة جدا وبوابة جميلة ذات عقد فخم • وكل ذلك يعود لزمن الصليبيين •

ان النظرة الأولى لأهم المقدسات المسيحية تترك في كل حاج انطباعا مهيبا جليلا يزيد من عمقه الموضع . فالفناء (الساحة) القديم يقع أدنى (أكثر انخفاضا) من مستوى سائر المدينة بعدة خطوات وتحيط بها المنازل الداكنة للقدس الحزينة وفي وسط الفناء تقع كنيسة القيامة بقبابها العالية ، وقد أثر الزمن فى المبنى تأثيرا واضحا •

ويتناثر في هذا الفناء باعة الصور المقدسة ، ووقف كثير من القسس والرهبان الروس يراقبون موكبنا ودخلنا

من البوابة الرئيسية • ان الكنيسة من الداخل مثيرة للإعجاب، لكنها تعطي انطباعا بالحزن والقسوة •

وتعبق البخور وعطر الورد جو الكنيسة الرطب المقبض الثقيل •

وثمة بوابات مصليات صغيرة (جمع مصلى Chapel) الى اليمين والى الشمال ، ودرجات (سلالم) واماكن مرتفعه مخصصة للمنشدين والمرتلين والكهنة Choirs ، وسرعان ما يرى الحاج (المقدس) أن بيت الله العظيم هذا ما هو الا ملتقى لمذاهب شتى وطرائق عبادة مختلفة ، وكحل وسط لهذا الاختلاف تم تخصيص مكان لكل مذهب أو جماعة لتؤدى فيه طقوسها بعيدا عن أصحاب المذاهب الأخرى • وفي وسط الكنيسة بين صالة دائرية يوجد مصلى chapel واحد ، بمثابة معبد temple قائم بذاته ، انه المصلى الحقيقى للمقبرة (المدفن) Sepulchre وهو تابع (أى المصلى) للكنائس الشرقية والكاثوليكية Eastern and Latin وترتبط عقائد كل المذاهب القديمة بها • أما المذاهب المسيحية الأحدث ــ البروتستنطية والعقائد الشبيهة ــ فهي وحدها المستبعدة (لا يسمح لها بممارسة الشعائر هنا) •

وقبل أن نصل الى مصلى الدفن Chapel of the Sepulchre ركعنا جميعا بالقرب من الحجر المكعب العظيم الذى تم تعطير المسيح عليه (قبل دفنه) Stone of anointing وكان محوطاً بشمعدانات ثقيلة ــ وانطرحنا أرضا وقبلناه (أى قبلنا الحجر) • انه الحجر الذى عطر فوقه نيقوديموس Nicodemus جسد المسيح قبل الدفن ، ففي الكتاب المقدس (*) : « ولما كان المساء اذ كان الاستعداد ، أى ما قبل السبت جاء يوسف

(*) فضلنا نقل ما يقابل النص الذى أورده الارشيدوق ردولف من الاناجيل العربية مباشرة • (المترجم) •

الذى من الرامة Arimathaea مشير شريف a disciple of jesus. وكان هو ايضا منتظرا ملكوت الله فتجاسر ودخل الى بيلاطس Pilate وطلب جسد يسوع ، فتعجب بيلاطس انه مات كذا سريعا فدعا قائد المائة وسأله : هل له زمان قد مات ؟ ولما عرف من قائد المائة وهب الجسد ليوسف فاشترى كتانا فأنزله وكفنه بالكتان ووضعه فى قبر كان منحوتا فى صخرة ودحرج حجرا على باب القبر » .

مرقس ١٥ : ٤٢ ـ ٤٦

« ثم ان يوسف الذى من الرامة وهو تلميذ يسوع ولكن خفية ـ لسبب الخوف من اليهود ـ سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع . فأذن بيلاطس فجاء وأخذ جسد يسوع ، وجاء أيضا نيقوديموس الذى أتى أولا الى يسوع ليلا وهو حامل مزيج مر وعود نحو مئة منا ، فأخذ جسد يسوع ولفاه بأكفان من الأطياب كما لليهود عادة أن يكفنوا ، وكان فى الموضع الذى صلب فيه بستان ، وفى البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط فهناك وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريبا » .

يوحنا ١٩ : ٣٨ ـ ٤٢

« وفى المساء جاء رجل غنى من الرامة يدعى يوسف وكان هو أيضا قد تتلمذ ليسوع ، وتقدم الى بيلاطس وطلب منه جسد يسوع فأمر بيلاطس بتسليمه الجسد . فأخذ يوسف الجسد ولفه فى كتان نقى وأسجاه فى قبره الجديد الذى كان قد نحته فى الصخرة ثم دحرج حجرا كبيرا على باب القبر ومضى ، وكانت هناك مريم المجدلية ومريم الأخرى جالستين تجاه القبر » .

ـ انجيل متى ـ الترجمة الجديدة (لجنة ترجمة الكتاب المقدس . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٢) الفصل السابع والعشرين ـ ص ١٢٤ .

وانتهت طقوسنا فتقدمنا الى مدخل مصلى الدفن the Chapel of the Sepulchre . لقد ظل هذا الموضع الصغير لفترة طويلة قصرا على الكنائس الشرقية ، والأثر اليوناني واضح فيه بجلاء سواء في داخله أم في خارجه ، وهو محلى بالذهب والفضة وبه صور سوداء للقديسين ، وله كل السمات الخاصة التي تميز الكنيسة الشرقية الأورثوذكسية ·

وسمح بالدخول الى المصلى Chapel بصحبة البطريرك فدخلنا عبر بوابة منخفضة بحيث يتعين على الداخل أن يزحف ــ بكل معنى الكلمة حتى يصل الى ضريح العقيدة المسيحية وتظهر الصخرة الجرداء بين زينات خشبية فوقنا هذه الصخرة العارية ، لأنها الصخرة نفسها التي دفن فيها المسيح (عليه السلام) the Son, of God was laid ·

وطغى على المكان اريج الزهور والبخور والابهة اليونانية وضوء المصابيح الضارب للحمرة وهمهمة الصلوات الكاثوليكية (اللاتينية) · لقد بدا هذا القبر الضيق وكأنه العالم كله ، انه مهد عقيدتنا (المسيحية) · ان الحاج يضغط بحماس اعتقادي ــ بشفتيه الحارتين على هذا الحجر العارى ، ويبثه عواطفه الحارة ويتحدث (اليه) براحة وقوة وأمل · . . .

وبعد دقائق قليلة آخرجنا البطريرك مرة اخرى فركعنا جميعا امام مصلى المدفن ، بينما كان القسس والرهبان يرتلون التراتيل المقدسة التي تردد صداها بين الصالات المهيبة · واستأذنا من البطريرك عند باب مصلى الدفن · وقد رغبنا أن نؤدى صلواتنا الأولى عند هذه البقعة المقدسة واقترحنا أن نزور الكنيسة ونتفحص تفاصيلها في اليوم التالي · لذا فسوف اقدم وصفا سريعا لها بعد ذلك ، أما الوصف التفصيلي فقد يحتاج الى دراسة مستقلة · اننا الآن نمر خلال بعض الشوارع الأكثر ضيقا الى مركز الضيافة hospice النمساوى مصحوبين بالمسئولين الأتراك · ومركز الضيافة

النمساوي هذا عبارة عن مبنى واسع وبه أماكن للاقامة ذات غرف وملحق به مصلى chapel جميل جدا • ووصلنا لبوابة المبنى بعد صعود درجات سلم ، واستقبلني مسئول المقر وهو قس من التيرول Tyrolese جدير بالاحترام •

وبعد وصولنا مباشرة ، كان علينا أن نستقبل القنصل ثم المسئولين الأتراك، وحاكم المدينة ، وكانوا جميعا فى ثيابهم الشرقية ، وبعد ذلك استقبلنا رؤساء كل الكنائس المسيحية، ورؤساء الطوائف اليهودية • وأتى البطريرك الكاثوليكي Latin ومعه القسس والرهبان ، وأتى البطريرك اليوناني ومعه باباواته his popes ، ثم أتى رجال الدين الأرمن فالأقباط فالبطريارك السورى • وتعتبر الكنيسة السورية هى اكثر الكنائس لفتا للنظر ، ويمثلها فى القدس رجل وقور ذو لحية داكنة جاء فى طيلسان أسود يتدلى من غطاء رأسه البابوى حجاب • وعقيدة اليعاقبة القديمة Jacobeans وهى — على حد علمى — أول العقائد التى انفصلت عن الكنيسة الأولى فى عصور المسيحية الأولى • ولازال لها اتباع حتى فى آسيا الصغرى ، واليعاقبة يوقرون القديس جيمس James أكثر من توقير الكنائس الأخرى له •

وأخيرا زارنا الحاخامات اليهود rabbis وكان على رأسهم كبيرهم يرتدى زى طبقته الكهنوتية السائد بين يهود هذه الأيام • هذا الرجل العجوز بلحيته الطويلة البيضاء وبشرته الشمعية الصفراء وملامحه الرقيقة كان قد ولد فى إسبانيا وارتدى — كمعظم الحاخامات المقيمين فى فلسطين — اللباس اليهودى (العبرى) القديم : نعل أصفر ، وثوب طويل وعمامة وعباءة يزينها الفراء • وكنت أتخيل دائما أن الفريسيين (١) Pharisees لابد أن منظرهم كان كمنظر هؤلاء الحاخامات rabbis .

وبعد أن غادرنا هؤلاء الزوار الذين كان منظرهم شائقا طريفا غادرنا مقر الضيافة النمساوى (الآنف ذكره) مخترقين شارعا يؤدى الى بوابة دمشق القديمة . ونصبت خيامنا خارج البوابة مباشرة بين بساتين نخيل فريته (لم تتم نموها الطبيعى) بالقرب من مواضع حجرية واكوام من بقايا مبان خربة . وتركنا خيولنا ودوابنا بالقرب منا . ونام رجالنا على الأرض ، ونام الخيالة الأتراك الذين رافقونا – للحراسة – من يافا بالقرب منا فى معسكر مؤقت بالعراء ، واقام جنود مشاة القدس كردونا (سياجا) حول المعسكر كله حتى لا يزعجنا العامة – خاصة من المسيحيين واليهود – بأكوام من طلباتهم والتماساتهم .

لقد سعدنا بالراحة بعد أن عانينا هذا اليوم من الحرارة والارهاق ، وأعاد الهواء المنعش ومنظر الشمس الغاربة الينا الراحة وبعد أن تناولنا العشاء عم السكون المعسكر ، وظل نباح الكلاب نصف المتوحشة يصل الى أسماعنا عبر أسوار المدينة ، بالاضافة الى أصوات الضباع التى جذبتها بقايا الذبائح التى ذبحت فى موضع لا يفصله عن معسكرنا الا واد ضيق صغير .

وفى الصباح الباكر لليوم الثلاثين من الشهر ذهبنا جميعا سادة وخدما الى مقر الضيافة النمساوى الآنف ذكره حيث تلقى القس الملحق بالمقر ، وبعض الفرنسسكان الذين يتحدثون الألمانية الاعتراف من كل مجموعتنا ، ثم انطلقنا الى كنيسة القيامة حيث أقام القس آنف الذكر القداس ووزع العشاء الربانى Communion علينا جميعا . وبعد القداس بدأ القس يبارك الأشياء العديدة التى اشتريناها كتذكار والتى وضعناها على حجر المدفن .

ولما غادرنا مصلى المدفن ذهبنا لنرى الكنيسة الكبيرة نفسها ، وعبرنا مصلى آخر صغيرا خاصا بالفرنسسكان الى

دير فرنسسكاني صغير متصل أيضا بمبنى كنيسة القيامة ، ووصلنا – بعد أن مررنا بسلالم ضيقة وغرف قذرة ذات هواء خانق بشكل لا يطاق – الى صومعة متواضعة تسمى حجرة الطعام فاستضافنا الرهبان الودودون وقدموا لنا شيكولاتة طيبة .

وأثناء تناول الافطار وصف لنا راعي تراسنتا Terra Santa العداوة والصراع التي تكاد تكون متصلة والتى تسود بين مختلف المذاهب (المسيحية) ، والتي تتجاوز – في بعض الأحيان الكلمات الى الأفعال ، واذا حدث هذا داخل الكنيسة ، فان العساكر الأتراك غير المسيحيين يتدخلون بفعالية لضبط النظام . لقد تحدث القس ثابت الجنان بشجاعة وألقى اللوم كله – بعبارات قوية – على المسيحيين الشرقيين . ومن الصعب أن نقرر على أية طائفة مسيحية يقع اللوم الأكبر ، لكن المؤكد أن هذا الاختلاف المستمر لا يجعل الأتراك يقبلون على اعتناق المسيحية ، وبعد الافطار استعرضنا الدير كله . لقد كان الرهبان يعيشون في صوامع بائسة وليس أمامهم – لشم الهواء النقي – الا شرفة فوق السطح ، وهذا الدير الفرنسسكاني الصغير ومقار الاقامة المخصصة للقسس اليونانيين والأرمن – في الجانب المقابل للدير في الكنيسة – أي انها جميعا تقع داخل حدود كنيسة القيامة التي ليست لها الا بوابة واحدة لا يفتحها الا الأتراك الذين يحكمون سيطرتهم عليها في المناسبات المهمة وعند وصول عدد كبير من المقدسين (الحجاج) وذلك اذا طلب كل البطارقة أو أحدهم ذلك . وفي الفترات الفاصلة (بين المواسم والمناسبات الدينية) تظل الكنيسة مغلقة غالبا لأسابيع بل ولشهور ، وفي هذه الأثناء تفرض حراسة مشتركة من الداخل وتتم مراقبتها بعيون حذرة . وليست ثمة بوابة أخرى للكنيسة تفضي للمدينة سواء عن طريق الدير الكاثوليكي Latin البائس أو من المناطق المخصصة

للمسيحيين اليونانيين ، فكلتا الطائفتين (الكاثوليك واليونانيين) مضطرون للتزود باللحوم والشراب عن طريق سلال ينزلونها (بحبال) من خلال النوافذ وبالقرب من ممار هؤلاء الحراس الكنسيين ممرات تدور داخل الكنيسة ، ومنها يمكن لرجال الدين المنوط بهم حراسة الكنيسة معرفة كل ما يجرى بالداخل ٠

لقد هبطنا من الدير الموجود داخل الكنيسة وتفحصنا كل المواضع التاريخية وكل المصليات Chapels الجانبية وكل المواضع المرتبطة بالقصص الديني والجوانب العقائدية ٠ ان المرء يجمع كما كبيرا من الأفكار والمعلومات التراثية هنا ٠ انه من السهل أن يرى المرء أن هذه المباني المختلفة تعود لحقب بعيدة مختلفة وأن كثيرا منها له خصائص عمارة العصور الوسطى ٠ والمصليات الفردية والأضرحة ـ ويوجد منها عدد كبير ـ تختلف فى طابعها وفقا لأصحابها (ملاكها) ، فبعضها كاثوليكي (لاتيني) تماما ، وبعضها الآخر أرمنى أو سورى أو قبطى ، وان كان أغلبها أرثوذكسى يونانى وهذا النوع الأخير مزين بالذهب والفضة ويغص بصور القديسين البيزنطية الداكنة ٠

وعند الحديث عن كنيسة القيامة اكتفيت بتسجيل الانطباعات والمناظر التى حضرت فى ذاكرتى بحيوية ولم أحاول الخوض فى الوصف التفصيلى لها ، لأن ذلك يحتاج لدراسة تمهيدية تستغرق جهدا يحتاج لوقت طويل ، كما أنه يمكن الالمام بوصف مفصل ودقيق لها ـ لمن أراه ـ من خلال بعض الكتيبات الارشادية ٠

ولم أترك أية بقعة فى الكنيسة الا زرتها فرحت أصعد سلالم وأهبط سلالم أخرى ، وغالبا ما كان مسيرى على بلاطات (ألواح حجرية) غير جيدة الرصف وغير منتظمة بأية

حال من الأحوال • وفي كل مكان • خاصة عند الأضرحة اليونانية رأينا عددا من المقدسين (الحجاج) الروس يصلبون أنفسهم دوما بين كل سجود وآخر •

ثم تفقدنا دير القديس سالفاتور Salvator الفرنسسكاني الكبير القريب ولم يكن فيه كثير مما يستحق الرؤية فقد كان ديرا فقيرا جدا ليس به الا كنيسة ومطعم وبعض الصوامع لذا ، فقد كانت زيارتنا الحقيقية لرهبانه • وكانت زيارتنا التالية للبطريارك وقد استقبلنا في بيته المحوط بعدد كبير من رجال الدين التابعين له • ومسكنه كمساكن رجال الدين في الجنوب أجرد قليل الأثاث وثمة بعض الستائر الممزقة هنا وهناك ، والأرضية من ألواح حجرية ، والجدران مزينة بصور دينية من الفن الايطالي • والمصلى والساحة والسلم العريض ، كل ذلك بسيط غاية في البساطة ويبين كيف أن أمراء الكنيسة الكاثوليكية Latin في الشرق أبعد ما يكونون عن الثراء •

وفي بيت البطريارك الجليل كان علينا أيضا أن نلتزم بالعادة الشرقية المرعبة وهي أن نتناول مشروبا عند كل زيارة • لقد بدأنا بالشيكولاتة عند الفرنسسكان ، أما هنا (عند البطريارك) فكان علينا أن نتجرع شراب الليمون وعصير اللوز وكلاهما كان تفه المذاق (غير مستساغ) ، وكان ما هو أسوأ في انتظارنا في الصباح •

واقتربت مني فتاة مسيحية من هذه الأنحاء على سلم بيت البطريارك • كانت شرقية خالصة ، ترتدي اللباس اليهودي القديم وتضع فوق رأسها غطاء رأس أبيض ، ولم تكن محجبة • كان منظرها مدهشا وملامحها دقيقة وقوامها رشيقا وسحنتها شاحبة • انه أفضل نموذج لمن يريد أن يتصور المجدلية Magdalen • وقد سلمتني ملتمسا واختفت بين صفوف الأعمدة (في الرواق) •

وسرنا في الشوارع الضيقة المزدحمة بالبشر ، في طريقنا الى البطريارك السورى • مقدسون (حجاج) كثيرون وتجار مسلمون ومتسولون ذوو منظر بشع ، يملاون جوانب الطرقات . واستقبلنا البطريارك السورى فى ثوب أسود عند مدخل الكنيسة ، وكان قسسه يلبسون جميعا الملابس السوداء التى يلبسونها عند أداء القداس ، ويضعون فوق رءوسهم أغطية رأس كتلك التى يراها المرء فى صور الفترة المسيحية الباكرة ، ويحملون فى أيديهم مشاعل • ودخلنا الكنيسة بوقار بين القسس وصبية الخورس (المنشدون فى الكنيسة) وكانوا يلبسون ملابس كملابس القسس . وقد أنشدوا — بالسريانية (*) — النشيد الوطنى •

والكنيسة نفسها تشبه الكنائس اليونانية ، فهى ثرية فى الزينات الذهبية والفضية وباسراف ، ومع هذا فلها بعض الخصائص التى تميزها عنها (عن الكنائس اليونانية) كما أن بها مقبرة خاصة للمتحمسين للقديس جيمس S. James .

ومذبح هذه الكنيسة مرتفع جدا ، وفى مصلى جانبى بين حجر يستقر رأس القديس جيمس ويوقره أتباع هذه الكنيسة كثيرا الى حد التأليه almost as a divinity . والمحراب بما فيه من آثار مقدسة مزين بزينات ثرية كما هو معتاد • وبالقرب من المذبح يوجد عرش مذهب مرتفع يمر به القسس ويشيرون اليه بأعمق درجات التوقير • انه مقعد القديس جيمس ، وعلى هذا المقعد يتم دائما تتويج هذا القديس ، لكن ذلك — بطبيعة الحال — يتم بشكل غير مرئى invisible .

وثمة حجاج (مقدسون) كثيرون فى هذه الكنيسة التى تعتقد مثل هذا الاعتقاد ، ويتضح من نظراتهم أنهم ترك أو مسلمون •

(*) النص In Syrian وما أوردناه فى المتن هو المقصود غالبا — (المترجم) •

وتحركنا في موكب وقور من الكنيسة عبر رواق الى منزل البطريارك وكان بسيطا كما أنه ــ غالبا ــ غير ماهول، وبه كنبة في احد الأركان ، وثلاثة مقاعد تدعو للانقباض في الاركان الثلاثة الأخرى · واستقبلنا الرجل الوقور العجوز بحرارة واضطررنا لابتلاع شراب أحمر بلون الورد، لا يمكن وصفه ·

الحي اليهودي :

وبعد زيارة قصيرة غادرناه الى الحي اليهودي · تمة بعض الاسواق في القدس يسيطر عليها اليهود ، ويتمثل مقر اقامة الشعب المختار (الجنس المختار) في تجمعات في حواز طويلة مليئة بالمحلات التجاريه · قذارة ، ووسخ وروائح نتنه وضوضاء ــ لا يستطيع المرء الا بشق النفس معرفة مصدرها · أطفال نصف عراة يتمشون على احجار الشوارع، والنسوة اليهوديات ترتدى الواحدة منهن وشاحا (غطاء رأس) غير مهندم وتلفه حول رأسها المجزوز Shorn head وقد اطللن من النوافذ ، والرجال اليهود يبيعون ويشترون ويساومون ويغشون cheated · وثمة يهود من كل أصقاع العالم هنا لكن قليلين منهم يلبسون الملابس المعتادة ، وكثير من اليهود البولنديين يلبسون التالار latar (؟) واحذية برقبة وطواقي من فرو، وان كانوا جميعا في زى شرقي يشبه زى اليهود القدماء · ويمكن للمرء أن يسمع كل اللغات هنا ، وان كانت الألمانية والعبرية هما السائدتان ·

ومررنا بمشقة بين هذا الزحام لنصل للكنيس (المعبد اليهودي) فاستقبلنا الحاخام وكبار رجال الدين (اليهودي) وهم يلبسون ملابس آلمانية وقدموا مقاعد لنجلس في المعبد · كان الكنيس جديد البناء ويبدو كالمعابد اليهودية في بلادنا، وكان عدد قليل من اليهود الحاضرين يرتدون ملابس جميلة فمعظمهم كان يلبس القفاطين ويبدون بولنديين ، وبينما كنا

جلوسا أنشدوا أنشودة دينية(*) ورتلوا الدعوات (الصلوات) بطريقتهم الطريفة المقرونة بالحـركات العصبية وعيـونهم المتحـولة ، وسرعان ما غادرنا متبـوعين ببركات الـكنيس المفرطة !

ولما كانت كنيسة القيامة مفتوحة فقد كان الزحام شديدا في الشوارع ، فالناس يتحركون تحركا لا يكف جيئة وذهابا ، مشكلين خليطا مدهشا من الأجناس : روس وبلغار وفاليشيين Wallachians وأرمن ومواطنو آسيا الصـغرى ويونانيون واقباط والمقدسون (الحجاج) الكاثوليك Latin .

وبعد أن تناولنا افطارنا في معسكرنا ركبنـا الخيـول متتبعين الأسوار الداكنة القديمة لكنيسة الله Sacred Zion الى مسجد عمر الرائع . والحرم الشريف عبارة عن مسـاحة واسعة محوطة بالاسوار . والمسجد الرئيسي قبة الصخرة يقع في وسط هذه المساحة بقبته الشـامخة وأروقتـه وأعمدته وصالته (صحنه) المثمنة ـــ انه أحد أكثر المباني الاسلامية شهرة . ويوجد بين مبنى المسجد الرئيسي والمباني المتاخمـة لجدرانه (الملاصقة لها) بقايا أثرية صـغيرة مختلفـة آيلة للسقوط وآبار . والمعلم الأساسي بينها هو المسـجد الأقصى المتسم بكثير من الجمال ، وكان كنيسة تم بناؤها في عهـد الامبراطور جستنيان تخليدا لذكرى مريم (العذراء) وبعد ذلك جعله عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مسجدا .

وقد تفقدنا هذا المسجد بارشاد كبير الدراويش the chief dervish ، الذي يلبس لباسا ناصعا لكنه يبدو مسلما عجوزا غير قدير . والناس في فلسطين ـــ كما هو الحال في كل البلاد الاسلامية في آسيا أكثر تعصبا بكثير مما عليه النـاس في

(*) تكملة العبارة on their circular estrade ولم نفهم المعنى المقصود .. (المترجم) .

مصر ، لذا لابد أن يكون المسافرون حذرين مخافة جرح مشاعرهم • لقد تفحصنا المسجدين بعناية ، وفي وسط المساحة المثمنة آنفة الذكر توجد كتلة صخرية ضخمة اقيم المسجد the temple حولها ، وهذه الصخرة تعتبر خير شاهد على التشابه الكبير بين التراث الديني الشرقي ، فحتى اليهود يوقرونها • وقد ذكرها التلمود والتراث اليهودي يفيد أن ابراهيم (الخليل) وملكيصادق Melchisedek (٢) قد ضحوا هنا ، وهنا كان ابراهيم (الخليل) على وشك أن يذبح ابنه اسحق Isaac (*) وأن يعقوب (عليه السلام) كان أيضا يجله • وموقع تابوت العهد هنا ، ويعتقد اليهود انه مازال موجودا في المكان نفسه الذى خبأه فيه Jeremiah .

ويعتقد أن هذه الصخرة هي مركز العالم ، وان كان هناك اعتقاد آخر هو أن كنيسة القيامة هي مركز العالم وقد حدد المركز بوضع حجر صغير عليه داخل الكنيسة •

وانها لحقيقة طريفة أن المسجد الكبير يقع فوق معبد سليمان ، وأن المسلمين يؤمنون بكل التراث اليهودي وأضافوا اليه تراثا آخر خاصا بهم • فالمسلمون يقولون ان هذا الحجر يسبح في الهواء دون (دعامات تحته) فوق هاوية ، وليبينوا لك ذلك فانهم يصحبونك الى مساحة مجوفة تحت المعبد (المسجد) حيث ترى بقايا الجدران القديمة التي تعود للعصر اليهودي • ويريك المسلمون أيضا مواضع صلاة داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام) وابراهيم (عليه السلام) والياس (عليه السلام) ، وهنا أيضا ترك محمد ﷺ أثر رأسه (أثناء الصلاة) •

واذا أردنا احصاء كل الأساطير myths المرتبطة بهذه البقعة المهمة كل الأهمية ، في العقائد الآسيوية ، فان ذلك

(*) كان الخليل ابراهيم عليه السلام على وشك ذبح ابنه اسماعيل ، عليه السلام، وكان ذلك في مكة المكرمة كما هو معروف لدى المسلمين ـ (المترجم) •

سيكون عمــلا شاقا مرهقا ، ولــكن لــكي نبين كيف أن كل المعاني التي نشأت في الشرق ترتبط معا hang together يمكننا أن نذكر أن هذه الصخرة ــ وفقا لما يقوله المسلمون ــ هي البقعة التي سينصب فيها ــ يوم القيامة ــ عرش الرحمن، وستأتي الكعبة (المشرفة) من مكة الى الصخرة (في القدس)، فهنا سينفخ في البوق (الصور) ويبدأ الحساب . وفي أيام الاسلام الباكرة كانت هــذه البقعــة بأهميــة مكة نفسها ومن هذا الحجر صعد (عرج) محمد ﷺ للسماء ، وكان على جبريل أن يعيد الحجر لمكانه لأنه (أي الحجــر) كان ميالا للتحليق مع محمد ﷺ وقد أطلعونا هنا على شعر ذقن النبي ﷺ ورايته ، وكذلك شــعر عمر (رضي الله عنه) ورايته ، ودرع حمزه (رضي الله عنــه) عم عمــر (رضي الله عنه) (كذا) ، كما أرونا بعض نسخ جميلة من القرآن (الكريم). وقد لاحظنا أيضا الفسيفساء mosaics ذات الأهمية الكبيرة في تاريخ الفن ، وبعض النوافذ الزجاجية الجميلة ، وبعض النفائس المعمارية مما لا مجال لذكره هنا .

وعلى أية حال ، فلابد من ذكر الكتابات الكوفية القديمة ، وآيات القرآن (الكريم) المنقوشة على الجدران بخط جميل . والتي تشير للمسيح (عليه السلام) من وجهة نظر القــرآن (الكريم) :

« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتــاب ولم يجعل له عوجا(١) قيما لينذر بأسا شــديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا (٢) ماكثين فيه أبدا (٣) وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤) ما لهم به من

---

(١) سورة الكهف/مكية ، وقد نقل الأرشيدوق رقم السورة خطأ xvii والصحيح xviii كما ترجمت له الآيات مبتسرة هكذا :
Praise be to God who has had no Son anr nome to shave his govern-ment, and no helper to save him from dishonour, praise him", etc. (المترجم)

علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا (٥) » (١) ٠

ورأينا المكان مكشوف وذهبنا للجدار الخارجي ٠ انه يهبط ـ بشكل عمودي ـ الى مسيل صخري عميق ، وهنا يمكن رؤية منظر رائع عبر أرض مسطحة الى جبال الاردن والبحر الميت ٠ ولفتت نظرنا البوابة الذهبية في الجدار ، وقد اخبرتنا الحكايات اليهودية المتعلقة بحياة المسيح عنها وقد ملأها المسلمون حتى آخرها بالأحجار لأن هذه البوابة ـ وفقا لاعتقادهم ـ ستكون المدخل الذى سيدخل منه ملك وسيم قادم من الغرب ليقتحم مسجد عمر ويضع نهاية لحكمهم ٠

وغادرنا هذه البقعة الشائقة جدا بعد زيارة طويلة ، انها الموضع الذى يقع فيه المعبد اليهودى القديم وقصر سليمان ومركز اشعاع المملكة اليهودية المتقدمة حضاريا ٠ وهنا أيضا ـ فى وقت لاحق ـ علم المسيح (عليه السلام) ، وكثير من أفعاله وأقواله المرتبطة بعقيدتنا مرتبطة بدورها بهذا المكان ، وبعد ذلك دخل الرومان المنتصرون هنا وذبحوا اليهود ٠ وهنا يقع معبد جوبيتر Jupiter وأصبح فى عهد جستنيان البيزنطى كنيسة ، وأخيرا أتى الاسلام وجعل منه مسجدا فسيحا ، وهكذا اختلطت عقائد الديانات الثلاث وتراثها فى أيامنا هذه بهذه البقعة اختلاطا غريبا ، لتذكرنا بأنها جميعا ديانات شرقية ٠

ومسجد عمر جعلنا أيضا نتذكر لوحة رافائيل Raphael الشهيرة عن زواج العذراء ٠

وممرنا محاذين لحائط المبكى اليهودى، حيث لا يزالون يذهبون لينعوا مملكتهم المفقودة وخرائب معبدهم ، وعبرنا المدينة الى كنيسة القيامة سالكين الشارع المعروف بطريق الآلام Via Dolorosa ، وكان قد تجمع هنا عدد كبير من الحجاج الكاثوليك وسلمونا جميعا شموعا مضيئة وتحركنا فى موكب على رأسه الفرنسسكان من بقعة مقدسة الى أخرى

مقدسة ، وكنا نرتل الاناشيد ونحن سائرون ، وعند المواضع المحددة نركع ونكرر الدعوات (الصلوات) ، واستمرت هذه الدورة (الجولة) ساعة ، لقد أضاءت المشاعل الكنيسة المعتمة بضوء باهت وعم صوت التراتيل الرتيب ، وانتشرت روائح البخور القوية ، والقى كل ذلك على أرواحنا شعورا باطنيا غامضا • جحافل من المقدسين (الحجاج) ينضمون يوميا الى مثل هذا الموكب المرتبط بمنح الغفران الكاثوليكي على نطاق واسع •

وعدنا لمعسكرنا لنركب خيولنا وندور حول المدينة (القدس) • وفي مساء مقمر رائع مررنا بمقابر الملوك وقبر Absolom ورأينا حقل الدم Aceldema ووادي قدرون Kedron وكان مهجورا حجريا عابسا بعظمة ـ رأينا كل ذلك في المواقع نفسها التي حددها الكتاب المقدس •

ودنا الفجر وتشبعت أرواحنا بمشاعر عظيمة ، فعدنا ببطء بين الجدران القديمة الى معسكرنا •

وفي ٣١ مارس ذهبنا جميعا الى كنيسة القيامة لنستمع الى القداس في مصلى جانبي واستقبلنا راعي تراساننا Terra Santa عند المدخل ، وقادنا لنصعد الى مصلى مظلم حيث كان هناك مذبحان يفصلهما شبك حديدي أحدهما مسطح وبسيط وهو المذبح اللاتيني (الكاثوليكي) والآخر مزين بالفضة اللامعة وهو المذبح اليوناني ، والمذبح الأول (الكاثوليكي) يقع حيث جلست العذراء مريم عند الصلب ، أما المذبح الثاني فيحمل اسم جولجوثا Golgotha ، وبدت الصخرة العارية بين المذبح اليوناني ، وأثناء القداس اللاتيني (الكاثوليكي) أقبل مقدسون (حجاج) كثيرون خاصة من الفلاحين الروس ليقبل الواحد منهم في اثر الآخر ـ هذه البقعة المقدسة ، فحذونا حذوهم وكان قسسهم يرشوننا

بأسراف بماء الورد المقدس ــ أثناء ذلك ، وكان المصلى الاورثوذكسي مجللا بالسواد لانهم بعد ساعة سيقيمون القداس على روح القيصر اسكندر الثاني .

وغادرنا الكنيسة بعد ذلك وذهبنا بعد أن مررنا بشوارع عدة الى دير الراهبات الذى أسسه القس المشهور الاب راتينسبون Ratinsbonne وتقع كنيسته على the place Ecce Homo وليس فيها ما يلفت الانتباه فمبناها جديد على النسق الفرنسي مطلية باللون الأبيض المتالق ومبناها ليس جليلا ولا مؤثرا، اذ يبدو كأماكن العبادة البروتستنطية ، وقد ألحقت مدرسة للبنات بالدير ، وهي مؤسسة تعليمية نبيلة حقا لذا، فان هذا القس الجليل يستحق الاشادة ، والمدرسة نظيفة جدا وجيدة الترتيب ، وتقدم خدماتها التعليمية للأطفال الأغنياء والفقراء على سواء ، ومعظمهم من المسيحيين ، لكن القس المتسامح يسمح للبنات اليهوديات والمسلمات أن يقتسمن مع زميلاتهن المسيحيات نعمة التعليم .

وألقينا نظرة على منظر جبل الزيتون الرائع وعلى المنطقة المحيطة بالقدس من فوق سطح المنزل . وفى غرفة الاستقبال كان علينا أن نشرب عصير الليمون المعتاد ، ثم ذهبنا الى مصلى مجاور هو مصلى (كنيسة صغيرة) الآلام Scourging (؟) ، وبعد طرقات عدة على باب متهالك فتح لنا راعي هذا المكان المقدس . لقد كان فرنسسكانيا عجوزا غير مهندم ولد فى اسبانيا ، وقادنا الى ساحة خربة داخل المصلى Chapel الصغير الذى بنى سنة ١٨٣٩ وفى المذبح يوجد الثقب الذى ثبت فيه عمود الجلد .

وبعد ذلك ذهبنا للمباني الحكومية لتقديم واجبات الاحترام للباشا والوالي governor ، وفى ساحة مبنى شرقى قديم اصطف حرس الشرف مستقبلا ايانا بعزف

الموسيقا ودخلنـــا غرفة الاستقبال في الطابق الاول • كانت الارض مفروشة بالحصير والجدران عارية ، اما الكنب فكان مغطى باقمشة فاخرة وممتد على طول الجدران الأربعة ، ولم يكن من أثاث آخر في الغرفة الا هـذا الكنب ، وأحسسنا بالسرور لأننا سنجلس جلســة شرقيــة واستمتعنا بالقهــوة التركية الممتازة ودخنا السجائر والتوباكو المجلوب من لبنان، وبعد انتهاء الزيارة القصيرة استأذنا الباشا وغادرنا المباني الحكومية ، مودعين بعزف موسيقا الأبواق كما دخلنا •

العلية وزيارة لسلالة عثمان رضي الله عنه :

وكانت زيارتنـــا التاليــة لمـوقع العليــة Coenaculum او موضع العشــاء الأخــير الذي يقــع في منزل ــ على حافة المدينة ــ قديم جدا ، لكنــه الآن ذو طابع اســلامي تماما ، واطلعونا في المنزل نفسه بين الأحجار والنفايات على قبر داود (عليه السلام) وهو مكان يحظى باحترام المسلمين ، وهــذا المنزل ملك لأسرة تنحدر من سلالة عثمان (رضي الله عنه) وكانت في وقت من الأوقات أسرة ثرية ، وأفــراد هـــذه الأسرة يعيشون في فقر مدقع ولكنهم يلبسون عمائم خضرا كبيرا حجمها وملابس زاهية لكنها بالية شيئا ما •

وفي ذكــرى جــدهم العظيم (عثمان رضي الله عنــه) استقبلونا بطريقة تنم عن تنازلهم وتعطفهم باستقبالنا رغم روح الصداقة التي أبدوها ، ولم يجملوا للزيارة طعم تفقــد أثر تاريخي في هذا الموقع ، وانما عاملونا وكأننا قد أتينــا لنقدم البيعة أو واجبات الاحترام لهم ، باعبتار أن أحــدا ما لا يجهل قدرهم • وكان علينا أن نجلس عندهم على كنب قذر في ممر نصف مفتوح وأن نشرب القهوة في أكواب قذرة وأن ندخن السجائر • وهؤلاء الناس ذوو ملامح نبيلة ومتميزون على نحو لا تخطئه العين ، وكانوا يلبسون لحى طويلة وراحوا يقصون ــ بالعربية ــ حكايات تثير الشفقة والرثاء لم تكن

نستطيع أن نتجاوب معها الا بابتسامات ودودة • كانت الزيارة قصيرة ثم ركبنا خيولنا التى كانت فى انتظارنا خارج البوابة التالية •

وعاد الدوق الكبير والآخرون الى المعسكر ، واتخذت أنا والكونت كابوجا Caboga الطريق الشاق فى وادى قدرون Kedron • وفى هذا الوادى الكئيب العابس عدد هائل من القبور ، وحتى فى زمن اليهود كان هذا الوادى يعد غير نظيف بما يتناقض مع تل المعبد المجاور له • والتراث السابق على المسيحية يفيد أن الحساب (فى الآخرة) سيعقد هنا ، ويشارك المسلمون اليهود فى هذا المعتقد ويدفنون موتاهم فى الجانب الشرقى للحرم بينما يلتزم اليهود بالدفن فى المنحدرات الغربية لجبل الزيتون •

وكلاهما (المسلمون واليهود) يعتقد أنه عند النفخ فى الأبواق (النفخ فى الصور) معلنا قيام الساعة (يوم القيامة) سوف تتراجع التلال لتهيىء للأعداد الهائلة من الجثث التى ستبعث من موتها ــ مكانا ، أما المسيحيون فيعتقدون أنه هنا الموضع الذى انشقت فيه الصخور وظهر الميت فى اللحظة نفسها التى أحنى المخلص (المسيح) Redeemer رأسه انحناءة الموت فأظلمت الشمس وانشق ستار معبد سليمان الى شطرين •

وجبل الزيتون صخرى وشديد الانحدار فى جزئه الأدنى أما فى جزئه العلوى ، فان المنحدرات تتصمد بشكل أقل حدة ويغطيها الحصى والألواح الحجرية المنتشرة بين أشجار الزيتون القديمة كثيرة العقد ــ صورة التل ذى الخضرة الداكنة والمتسم بالعبوس • ووصلنا لقمة التل (الجبل) سالكين ممشى متعرجا ، فوجدنا مصلى (مسجدا) صغيرا به نوع من الطبل الدائرى Circular drum وعليه قبة متواضعة ،

تشغل البقعة التي صعد منها المسيح الى السماء وبقيت آثار قدمي المخلص (المسيح عليه السلام) واضحة على لوح رخام .

وهذا المكان يخص المسلمين ويعدونه مكانا مقدسا لكنهم يسمحون للمسيحيين باقامة القداس في أيام معينة . وبجوار المصلى مئذنة وتؤدى بنا درجات (سلم) ضيق الى المبنى ومن ثم ــ كما هو معتاد ــ الى الخارج ، الطريق مهشم ، وأحجاره زلقة وهو غير ملائم للأشخاص المعرضين للاصابة بالدوار (الدوخة) ، ورأينا من فوق قمة الجبل منظرا رائعا للقدس وللتلال التي تفصل الهضبة والمناطق المجاورة للقدس وبيت لحم ــ عن وادى الأردن . انها تلال ذوات خضرة داكنة كالاستبس ، وعلى البعد يمكن للمرء أن يتبين الجبال العالية الى الشرق من الأردن والبحر الميت ، ومن خلال مدخل الوادى يمكن للمرء أن يلمح مياه هذا البحر الداخلي (البحر الميت) كمرآة زرقاء داكنة .

ان جبل الزيتون والمباني المقامة عليه معرضة لاهمال شنيع ، وحديقة جيتزيمنه Gethsemene عند سفح هذا الجبل ــ وهي وحدها ــ التي يبدو أنها حظيت باهتمام من قبل الفرنسسكان ، فهي تابعة لهم . ويعيش الراهب في منزل صغير بجانبها ليتولى أمر العناية بها . وجبل الزيتون وحديقة جثسماني توقظ في النفس أفكارا جليلة ، فكل حجر يشهد بصدق التراث ، فكأن المرء يرى قصة آلام المسيح بين ليلة العشاء الأخير وموته في صور حية ، لقد شعرت كما لو أنني كنت أعرف هاتين البقعتين طوال حياتي . لقد كان الواقع متفقا تماما مع الصور التي يجللها الخيال .

وركبنا عائدين من وادى قدرون الى معسكرنا ، وعند ساحة الذبح (المسلخ) ترجلت وحاولت الاقتراب من أحـد نسـور الجيف لكن محاولتى لم تنجح • مئات من النسـور الضخام تحلق عاليا ، والكلاب لا تفتأ تتردد على هذه البقعـة المليئة بالدماء • لقد كانت الرائحة مرعبة لا تطاق فاضطررت للانسحاب بسرعة •



تعليقات المترجم

على الفصل السابع

(١) الفريسيون طائفة يهودية عرفت بالتزمت الشديد والالتزام الصارخ بالشكليات ، ومع هذا فقد كان غالبهم أول من يخالف الشريعة ويتحايل على التخلص منها ، ونورد فيما يلى نص ما أوردته لجنة ترجمة انجيل متى (١٩٧٢) المشكلة من الأنبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا وزكى شنودة ود . مراد كامل ، وباهور لبيب وحلمى مراد ، والجدير بالذكر أن ما أوردته اللجنة آنفة الذكر لا يختلف اطلاقا مع ما أوردته المصادر الاسلامية المختلفة .

« .. وكان اليهود ينقسمون فيما بينهم الى عدة طوائف مختلفة ومتباينة فى مشاربها الدينية والاجتماعية والسياسية . وقد اشتهر من هذه الطوائف على الخصوص الفريسيون والصدوقيون والهيرودسيون والكتبة والسامريون والعشارون :

والفريسيون هم طائفة متطرفة ميزت نفسها عن عامة الشعب فى الرأى والسلوك ، ولاسيما أنها كانت الفئة المتعلمة من الشعب ، وقد تصدت للمحافظة على الشريعة والتمسك بها وصيانة التقاليد التى تناقلها الخلف عن السلف . ولذلك حصر الفريسيون همهم فى درس الشريعة وتفسيرها ، ولكنهم تمادوا فى التمسك بالشكليات وبحرفية العبارات ، حتى انتفى المعنى الروحى عن الشريعة لديهم ، وانتهى الأمر بهم الى اعتبار الشريعة كأنما هى صنم يعبدونه . وقد كان لذلك أثره الشديد فى عامة اليهود الذين كانوا يحيطون الشريعة بهالة من الاجلال والتقديس . وكان الفريسيون فى نظرهم هم حفظة الشريعة ، فكانوا يحترمونهم ويطيعونهم ، ومن ثم استعبد الفريسيون الشعب فلم يتركوا أى شىء للارادة الحرة ، بل وضعوا كل شىء تحت قيود العبارة الحرفية للشريعة ، حتى أصبح اليهودى يتساءل فى كل خطوة يخطوها عن حكم الشريعة . وباتت الحياة عذابا لايطاق بالنسبة للرجل المتزمت الذى يخشى

فى كل لحظة أن يقع فى خطر التعدى على الشريعة · ومن الأمثلة على عقلية الفريسيين وأسلوب تفكيرهم ، ما كانوا يضعونه للطهارة من درجات كثيرة لايرتقى الانسان من احداها الى الأخرى الا بعد الدرس الطويل والتمحيص الدقيق · ومن حذلقتهم فيما يتعلق بالطهارة أنهم كانوا يضيفون الى أحكام الشريعة فى هذا الصدد عددا لا يحصى من الطقوس ، اذ كانوا يوجبون غسل الأيدى مرارا قبل كل أكل وعند كل عودة من السوق · فان لم يجد اليهودى ماء لهذا الغرض كانوا يوجبون عليه أن يفتش عنه ولو على بعد أربعة اميال · وكانت لديهم بهذا الخصوص جملة أوامر تحتوى على ست وعشرين صلاة ينبغى تلاوتها فى أثناء غسل الأيدى والأوانى على المائدة ، وكانوا يعدون اهمالها بمنزلة قتل النفس انتحارا ، اذ يؤدى لديهم الى الحرمان من الحياة الأبدية · وقد خصص التلمود أربعة أبواب كاملة منه لاجراءات الغسل والتطهير · ومع كل هذا التدقيق والتشدد فى تطبيق الفريسيين للشريعة والتقاليد ، يقرر التلمود أنهم لم يكونوا كلهم أبرارا ، فلم يكن أغلبهم كذلك الا فى الظاهر ، أما فى باطنهم فكانوا أول مخالفين لتعاليم الشريعة ، ومن ثم كانوا مثالا صارخا للتظاهر والرياء · وقد قسم التلمود الفريسيين الى سبعة أقسام ، وذكر أن ستة من هذه السبعة لاتستحق الاعتبار لمخالفتها الغاية المقصودة · أما السابعة فافرادها وحدهم هم الفريسيون الحقيقيون · وذلك أن الفريسيين مع أنهم كانوا يعتقدون أن الغرض الأسمى من وجودهم هو اقامة « السياجات » التى تصون الشريعة ، فانهم كانوا على استعداد تام لابتداع الحيل كى يتخلصوا من أحكام الشريعة اذا تعارضت مع مصالحهم ومآربهم · وربما كان أبرز مثال لذلك هو الوسيلة التى احتالوا بها ليحلوا أنفسهم من القاعدة الشرعية القاضية بألا تتجاوز أية رحلة فى يوم السبت مسافة ألفى ياردة · واذ كان الفريسيون حريصين على الاشتراك فى الولائم اليومية العامة ، فى حين كانت منازلهم فى بعض الأحيان تبعد أكثر من ألفى ياردة عن أمكنة هذه الولائم ، كانوا يحتالون على ذلك بأن يضعوا فى عشية السبت بعض الأطعمة على بعد ألفى ياردة من منازلهم ، وبذلك يخلقون مسكنا مفتعلا يستطيعون أن يسيروا بعده ألفى ياردة أخرى ، ومن ثم يتاح لهم أن يضاعفوا المسافة المفروضة · كما أنهم كى يتخلصوا من عقبة تحريم حمل أى شيء يوم السبت الى خارج البيت كانوا يحتالون بخدعة أخرى ، وهى أن يضعوا قوائم وعوارض أبواب ونوافذ فى مختلف الشوارع ، فتصير المدينة كلها بمثابة بيت كبير يحل فى داخله حمل الأشياء · ومن الأمثلة كذلك على تلاعبهم أن الشريعة كانت تلزم الابن بأن يعول والديه فى حالتى الشيخوخة والعوز ، ولكن الفريسيين كانوا يتيحون للأبناء الهرب من هذا الالتزام بحيلة كذلك ، وهى أن يذهب

الابن ــ اذا طالبه أبوه ــ الى الكهنة ويتفق معهم على أن يوقف كل أمواله وممتلكاته على الهيكل ، وعندئذ يعجز الوالدان عن أخذ شيء منه ، ثم اذا توقفا بعد ذلك عن مطالبته ذهب واسترد كل ممتلكاته من الكهنة نظير دفع نسبة معينة من المال ، فيستمر الوقف صوريا فقط وغير نافذ المفعول . وعلى هذا القياس كان الفريسيون يخالفون أوامر الشريعة ومحرماتها في سبيل منافعهم ومآربهم .

اما الصدوقيون فكانوا هم الطائفة الكهنوتية الأرستقراطية التى كانت متحالفة دائما مع السلطة الحاكمة حتى حين كانت هذه السلطة معادية لليهود . وقد اشتق اسمهم من اسم صادوق سليل فنحاس الذى مارس الكهنوت حين انتهى نسل أولاد هارون . وقد اكتفى الصدوقيون بالطاعة الاعتيادية للشريعة المكتوبة فقط ، في حين كان الفريسيون يعتقدون أن تقاليد الآباء وتعليقاتهم على الشريعة هي فوق الشريعة . وقد كان للصدوقيين نفوذ قوى لأنهم يشرفون على الهيكل . وقد أثروا اثراء فاحشا عن طريق العشور والهبات والتبرعات التى كانوا يجنونها من الشعب . والواقع أنهم ــ على الرغم من وظائفهم الكهنوتية ــ لم يكونوا يهتمون بالدين وانما كان كل هدفهم أن تظل الأوضاع مستقرة ليحتفظوا بسلطاتهم وثرواتهم . ومن ثم كانوا يتغاضون عن وجود المستعمر ، بل كانوا يشجعون ذلك ويسعون الى بقائه . ولذلك لم يكن الشعب يحبهم . وقد كان الصدوقيون قوما ماديين دنيويين لايؤمنون بالآخرة ولا بالأرواح ولا بالملائكة ، ويعيشون فى الدنيا عيش التنعم والرفاهية ، ساعين الى جمع المال بكل حيلة ووسيلة من الشعب ، فكانوا يثرون على حسابه . وقد وقعت مشاحنات كثيرة بينهم وبين الفريسيين فى هذا الشأن . ومن ذلك ما حدث بشأن توريد الضحايا اللازمة للذبيحة اليومية فى الهيكل ، اذ كان الفريسيون يرون أنه يجب شراء هذه الضحايا من مال الهيكل ، على حين كان الصدوقيون يعدون مال الهيكل من حقهم ، ومن ثم كانوا يرون أنه يجب شراء الضحايا باكتتابات مستقلة . كذلك كان الفريسيون يوجبون حرق الذبيحة على المذبح ، أما الصدوقيون فكانوا يأخذون هذه الذبيحة لأنفسهم . وقد ورد في التلمود أن الصدوقيين اذ كانوا يبيعون الحمام فى حوانيت يملكونها تسمى « الشاتوجوت » عمدوا الى مضاعفة المناسبات التى ينبغى فيها تقديم الحمام ذبيحة ، حتى وصل سعر الحمامة الواحدة الى بضعة دنانير . ومن ثم أفتى أحد شيوخ الفريسيين ، وهو سمعان بن غمالائيل ، بانقاص المناسبات التى يقدم فيها الحمام ذبيحة ، وبذلك وصل سعر الحمامة الى ربع دينار ، فكانت تلك ضربة

عنيفة لأصحاب حوانيت الحمام ، التى كان يملكها الكهنة ولاسيما أولاد رئيس الكهنة حنان (بتشديد وفتح النون) .

وأما الهيرودسيون فهم طائفة من السياسيين الذين كانوا يشايعون هيرودس الكبير ، وكانوا قد ارتبطوا معه بالنسب ووحدة المنافع الزمنية ، ومن ثم ظلوا فى رئاسة الكهنوت خمسا وثلاثين سنة وشاركوا أسرة حنان فى السؤدد . فكانت رئاسة الكهنوت فى هذه الفترة مشاعا بين الصدوقيين والهيرودسيين . وقد درج الهيرودسيون - بسبب ميولهم اليونانية ومنافعهم المادية - على ادخال التجديدات والعادات الوثنية الى المجتمع اليهودى ، معلنين احتقارهم للشريعة الموسوية . بل لقد بلغ بهم الأمر أن حاولوا اقناع اليهود بأن هيرودس هو المسيح المنتظر . ولما كان هدفهم الأول هو توطيد علاقات هيرودس بالامبراطورية الرومانية ، فقد عملوا على قتل كل حماس وطنى واخماد كل ثورة يهودية . كما عملوا بكل الوسائل على محو العلامات المميزة لأمة اليهود . فكان هذا مثار النزاع بينهم وبين الفريسيين . اذ عدهم هؤلاء مرتدين عن الدين القويم .

وكان الكتبة هم علماء الشريعة وحافظى تقاليدها . فكان من وظائفهم حفظ الهيكل والمجامع تحت اشراف الكهنة . كما كان من وظائفهم تعليم الدين ، وشرح التقليد ، والجلوس على كرسى القضاء فى المجامع الاقليمية . ومن ثم كانوا معروفين بالناموسيين ، أو الربيين ، أو المعلمين ، لتفقههم فى الشريعة . وقد نشأت طائفة الكتبة فى الأصل عن أن ملوك اليهود القدامى كانوا يتخذون كتبة ونساخا من طائفة الكهنة ورجال الدين . أو من الموظفين المثقفين ، فأصبح لهؤلاء فى الدولة نفوذ عظيم . ثم فى أثناء السبى ازدادت اختصاصات الكتبة ، فدخل فيها التعليم والتبصير بالشريعة ، ومن ثم اعتزلوا وظائفهم الحكومية وأصبحوا طائفة دينية لا تعنى الا بالشريعة وحدها . ثم بعد السبى مباشرة تولى الكهنة اختصاص الكتبة الى جانب اختصاصاتهم واستمر ذلك نحو مائتين من السنين ، أى حتى عام ٢٧٠ قبل الميلاد . ثم بعد هذا التاريخ أصبح الكتبة طائفة منفصلة عن طائفة الكهنة ، واختصوا بالتحرير والنسخ ودراسة الشريعة والاجتهاد فى شرح أحكامها ووصاياها . وقد كان تعليم الكتبة حرفيا ضيقا ، صارما ، وقورا فى مظهره ، خليعا فى جوهره . وقد شغفوا بالجدل ، لا لشىء الا الاستمتاع بلذة الجدل .

وكان السامريون هم أهل السامرة التى كانت عاصمة مملكة اسرائيل ، ثم سقطت فى يد ملك أشور عام ٧٢٢ قبل الميلاد . فأسر زعماء الشعب وأعيانه وكهنته وأخذهم الى السبى وأحل محهم فى السامرة خليطا

من الأجناس الأخرى ، وجعل على هذا الخليط حاكما أشوريا • ومن ثم لم يعد لمن بقى من اليهود فى السامرة من يبصرهم بأحـــكام الشريعـــة الموسوية ، فكادوا أن ينسوها • حتى اذا عاد اليهود المسبيون من منفاهم الى أورشليم بعد ذلك فى عام ٤٠٠ قبل الميلاد ، احتقروا الســامريين ، لأن دمهم لم يعد يهوديا خالصا ، بعد أن اختلطوا بالأجنــاس الأخرى • ومن ثم تأصلت العداوة بين اليهود والسامريين منذ ذلك الحين •

أما العشارون ، فكانوا هم جباة العشـــور أى الضرائب • وكان اليهود يكرهون هذه الضرائب التى يفرضها الرومان عليهـم كراهيـــة شديدة ، لأنها كانت رمز عبوديتهم ، وبالتالى كانوا يكرهون جباة الضرائب من الرومان ، ولكن كراهيتهم كانت أشد لليهود الذين يعاونون الرومان فى ذلك ، ولاسيما أنهم كانوا عادة من حثالة القوم • وكانوا فى الغالب ممن لاضمير لهم ، اذ كان الرومان يخولونهم جباية أكبـر قدر من المال يستطيعون الحصول عليه من الشعب ، على أن يقوموا بتوريـد الضريبة المقررة فحسب ، ثم يحتفظون بالباقى بعد ذلك لأنفسهم ، فكان كل منهم يبذل بطبيعة الحال أقصى ما يملك من جهد للانتفاع بهذا الوضع مهما ارتكب فى ذلك من ظلم وعنت • وقد كان هذا النظام شديد الوطأة على اليهود ، ولاسيما أنهم كانوا يدفعون الى جانب الضرائب المدنية للمستعمر ضرائب دينية للهيكل والكهنة • وكانت هذه الضرائب تشتمل على نصف الشاقل المفروض على كل فرد ، وعشر الحاصلات النباتيـة • وقد بلغ من تزمت الفريسيين أنهم كانوا يوجبون اقتضاء العشر حتى على أعشـــاب الحقل • وذلك فضلا عن أبكار الحيوانات وأبكار المحاصيل والضريبـة عن كل بكر فى العائلة ، وذبيحة الخطيئة وذبيحة الشـــكر •

وقد اشتدت كراهية اليهود لجبـاة الضرائب الذين كانوا يعرفون بالعشارين حتى لقد كانوا يسمون بالزناة ، وصارت كلمة عشار مرادفة لكل ما هو مكروه وبغيض •• » ص ص ٣١ ــ ٣٨ •

(٢) قيل ان أول من اختط مدينـــة القدس من اليبوسـيين (قبل العبرانيين بفترة طويلة) هو ملكيصادق ، ولما تولى ملكهم ســالم اليبوسى زاد فى بناء المدينة وشيد على الأكمة الجنوبية المعروفة فى يومنا هذا بجبل صهيون ــ برجا للدفاع عن المدينة لحمايتها ، وقد أخذت المدينة اسمها منه فعرفت باسم (أورسالم) أى مدينة سالم (أورشليم) •

أحمد رمضان أحمد : تعليقاته على كتاب « اتحاف الأخصا بفضــائل المسجد الأقصى » وهو من تحقيقه القسم الثانى • القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ ، القسم الثانى • ص ص ١٩٠ ــ ١٩١ •

الفصـــل الثامن

مغادرة القدس ـ طريق بيت لحم ـ بيت لحم ـ جمال النساء فى بيت لحم ـ برج ودير ـ رهبـان بوسنـاء ـ أسقف بيت لحم ـ طبيعة المسيحية الشرقيـة ـ مقدسـات مشتركة للاديان السماوية الثلاثة ـ الوصول للبحر الميت ـ صيد الخنازير ـ أريحا ـ رسوم بوسنجر ـ تعليقات المترجم ·

كان يتحتم علـى الآن أن أغادر القـدس فألقيت نظرة أخيرة على الجدران الداكنة لكنيسة الرب ، وسلكت مع كونت كابوجا Caboga طريق بيت لحم الممتاز ومررنا بالقرب من أدنى السور الغربى للقـدس من بوابة دمشـق التى يقـع معسكرنا بالقرب منها ·

ويتعرج الطريق عند مدخل وادى قدرون بين مسطحات حجرية وشجيرات متناثرة وأعشاب قليلة ، وتتعاقب أمامنـا الأسوار المهدمة للبساتين وحـدائق الزيتون ذوات الاشـجار القزمية والمنازل الخربة · وعن أيامننـا تقـع المستوطنة الألمانية بمبانيها التى تشبه الثكنـات العسـكرية ، اما عن شمائلنا فليس الا البرية الجرداء القفرة ، وأما أجمل المناظر فى هذا المشهد كله فهو منظر مدينة القـدس الذى خلفنـاه وراءنا بأبراجها وأسوارها والشرفات (الفتحات) المرتفعة فى أسوارها ·

الطريق يصعد تدريجيا فى المنحـدر المقـابل للوادى · ونرى ـ بالكاد ـ تلا أجـرده كان يقع عليـه منزل كايافاس

ومررنا أيضا بالبقعة التي كان يعسكر فيها Caiaphas الفلسطينيون عندما قاتلهم داود ، والى الأبعد توجد بقايا منزل سمعون المسن Aged Simeon وبئر ماجي Mage حيث ظهر النجم في الشرق مرة أخرى للرجال الحكماء • وسرعان ما وصلنا الى سرج التل (المنحنى الذى يصل بين قمتين صغيرتين أعلى التل) فوجدنا أنفسنا بالقرب من جدران بستان الدير اليوناني العظيم ــ دير مار الياس Mar. Elias بين أشجار الزيتون • المنظر من هنا جذاب ــ واد عريض حجرى خضرته داكنة تتخلله شقوق ويرتفع (من جوانبه) الى أعلى ــ وترقد في أحضانه بيت لحم • انه جمال في حاجة لريشة فنان •

والشقوق والأودية الصغيرة والانحدار العام للأرض ــ كل أولئك في اتجاه الجبال التي تحيط بوادى الأردن وتمتد خلالها الى البحر الميت • والى الجنوب الغربي رأينا ــ على البعد ــ غابة من أشجار الزيتون ظهر من بين أوراقها الخضراء الداكنة برج المقر الصيفي للبطريارك الكاثوليكي Latin . والى الشمال حجب المنظر بسبب التل الذى عبرناه لتونا ، لكن الى الغرب أعطت التلال الحجرية والأودية الصغيرة والهضاب تباينا (اختلافا) في طبيعة المنطقة •

وبعد أن هبطنا التل في ربع ساعة أتينا الى جدار بستان قلعة تنتور Tantur المالطية الصغيرة • لقد بنيت هذه القلعة في العصور الوسطى وتقع على منحدر جبل وذكرتنا بأيام الصليبيين • ويرفرف العلم المالطى ذو الصليب فوق المبنى ، وتحمل المباني المجاورة المعدة لتكون أماكن ضيافة واقامة ــ شواهد على مزايا نظام الفرسان القديم ، وعبرنا البستان الى الجدار الثاني (المقابل) حيث وجدنا بئرا عميقة في وسط ساحة مرصوفة • وقد خصص الكوانت كابوجا

Caboga هذه القلعة ومبنى صغيرا ملحقا بها معدة للمقدسين (الحجاج) المرضى ولأهل البلاد • وقد وجد الحياة هنا طيبة طوال العام فكرس نفسه للدراسة الجادة وساعده خادمه فرديناند نيكوديموس Ferdinand Nicodemus وهو مسيحي سورى شاب ومتعلم تعليما جيدا ويعمل كصيدلى ماهر في هذا المكان • وهو ـ بالاضافة الى ذلك ـ تابع مخلص وفارس ممتاز وحاد الذهن وبارع في التعامل مع أهل المنطقة ، وقد صحبنا خلال كل رحلتنا في فلسطين ، لذا فقد كان محل تقديرنا •

وفي اللحظة التي دخلنا فيها الساحة (المرصوفة آنفة الذكر) ظهرت الكلاب العربية الضخمة من كل جانب ـ انها مخلوقات جميلة ليست ككلابنا المجرية من نوع الولف Wolf dogs (الكلاب الذئبية) • وقد حيت هذه الكلاب سيدها وراحت تصدر أصواتا تنم عن فرحها • والكونت كابوجا Caboga محب للحيوانات ودجن أكثر أنواعها تباينا وظل محتفظا لمدة طويلة بضبع مروض تماما ، والآن فان خروفا آسيويا جميلا قد تبعه وصعد معه الى غرفته ، وقد هبط ببغاء ذو عرف من نوع اكوكاتو Cockatoo ـ يسير حرا بين الحمام ـ من البرج ، ليستقر على كتفه (كتفه الكونت كابوجا) •

وبعد أن تفقدت القلعة كلها صحبت فرديناند ومساعد الصيد التابع لى للموضع الذى كانت تبدو فيه الضباع ليلا • لقد عدنا مسافة قصيرة في الطريق الذى سلكناه ، أثناء عودتنا من القدس ، وتحت دير مار الياس Mar-Elyas ببضع مئين من الخطوات كان هناك جدار قديم من أحجار ضخام غير مثبتة جيدا • وصنعنا شركا خبأناه بعناية بالقرب من الطريق، وجعلنا حمارا عجوزا ـ في حالة تعفن شديدة ـ في مقدمة الشرك ، فالضباع تحب الفرائس المعفنة •

ولسوء الحظ ، أننا افتقدنا القمر في هذا الوقت ، فخمنت ان اية محاولة لرؤية الحيوانات المفترسة ستذهب سدى في الظلام الدامس ، فما البال باطلاق النار عليها اذا كانت رؤيتها ــ مجرد رؤية ــ أمرا متعذرا ، لذا فقد كنت أحضرت معي كثيرا من الاستريكينين Strychnine (مادة سامة) تحسبنا لهذا ، لاستخدامه في الايقاع بالضباع ، فسحبنا رجل حمار في قربة جلدية وسممناها بقدر كبير من السم • وفعلنا كما يفعل الصيادون فسممنا قطعة صغيرة من لحم الحمار ووضعناها بالقرب من الرجل المسممة ، لأن معظم الحيوانات اعتادت تذوق قطعة صغيرة من فريستها قبل الاقبال على التهام الفريسة كاملة • وبمجرد أن انتهينا من هذه الاعدادات المقرفة ، وجهزنا المكامن التي سنطلق منها النار ظهر عربي يحمل بندقية طويلة وعرض علينا خدماته • لقد كان شديد الرغبة في صحبتنا ، وقدم لنا نصائح طيبة كثيرة وراح يقص علينا كل انتصاراته في صيد الضباع • وكان من الصعب اسكاته • ان الوقت لم يحن بعد لمراقبة الضباع فرأينا أن نعود للقلعة وأن نصحب هذا العربي معنا ، لأننا خفنا ان تركناه أن يفسد شراكنا التي وضعناها ومكامننا التي جهزناها ، فقد كان فرديناند يعرفه ويعرف أنه شخص غير جدير بالثقة ويتعيش من صيد طيور الحجل (بفتح الحاء والجيم) ، وهو يهيم على وجهه متشردا حول بيت لحم ، ويؤكد نظرة فرديناند هذه ما يتسم به هذا العربي من وجه ماكر ملىء بالخداع لذا ، فقد قررت أن أتحاشى ضرره وخداعه طوال هذه الليلة وحدها •

وتركت دليلي الشاب ليحرس الموقع الذى أعددناه للصيد حتى عودتي ، كانت الشمس تغرب ملقية ألوانها الذهبية على تنتور Tantur وبدت جبال وادى الأردن بأطيافها اللونية الغامضة ، وانعكست حمرة الشفق من المنحدرات الجرداء للجبال الواقعة وراء البحر الميت ، فذكرتني بجبال الألب -

كانت السماء مغطاة بسحب ضبابية كأنها نتف الصوف وهب نسيم بارد رقيق عبر الهضبة • ولا يقارن المناخ فى المناطق المحيطة بالقدس وفى خط الجبال بين بيت لحم والساحل ، بهواء مصر المعتدل والمضطرد والمنعش • فقد ذكرتنا الرياح العاتية بمدى ارتفاع الهضبة الجرداء ، ولم تكن العواصف الثلجية في شهر مارس نادرة الحدوث • فالغطاء النباتى وتغيرات المناخ وهواء وادى الأردن الخانق ــ كل ذلك واضح عند بيت لحم الواقعة الى الشرق من هذه البقعة بحوالى فرسخ (ما بين ٤٫٢ الى ٤٫٦ ميلا) •

وعدنا مع العربى المصاحب لنا إلى القلعة ، فلما وصلنا اليها زودناه بلحم كثير وشراب ، وفى الوقت نفسه احتجزناه طوال اثنتى عشرة ساعة في غرفة محكمة الاغلاق ، وتناولنا نحن أيضا عشاء فاخرا أعده رجال السكونت وفقا لطريقة الطبخ المحلية ، وأسرعت ــ بعد ذلك ــ عائدا الى مركز صيد الضباع الذى أعددته • وكان الليل قد هبط أثناء ذلك ، ولسوء الحظ فان السحب الكثيفة زادت المنطقة ظلمة على ظلمتها •

وكان هودك Hodeck يقترب من السقيفة وأخبرنى أن بعض الضباع قد ظهرت بعد غروب الشمس مباشرة • لقد مكثنا بصبر صلد في مكمننا حتى منتصف الليل ، لكننا سرعان ما تحققنا من عدم جدوى ذلك فمن الصعب أن يرى واحد من الحيوانات التى نريد صيدها مكان الحمار الميت ، فلو أن المنطقة كانت من صخور ناعمة أو كانت صحراوية ــ كما هو الحال فى مصر ــ لتوقعت نتائج أفضل ، لكن الموقع هنا ــ كما هو الحال فى كل المناطق المحيطة بالقدس ــ يضم صخورا ضخاما ، وأحجارا تفصل بينها حشائش داكنة ، وأكثر من هذا فقد كنا مختبئين فى مكان ضيق يسبب لنا

عذابا حقيقيا • لقد كانت الريح مواتية للتريض والصيد وكانت تهب علينا من ناحية جثه الحمار حاملة معها روائح مرعبة لا تطاق • وفى أحيان ظننا أننا سمعنا أصوات الضباع تزحف ، وبين الحين والحين كان بعض الناس يمرون في الطريق وهم يغنون ، وكانت كلاب القلعة تنبح بشدة وكانت طريقة نباحها شرقية حقا •

وفى منتصف الليل كان صبرى قد نفد فعدنا للقلعة •

وايقظونى عند شروق الشمس فى الأول من ابريل فذهبت لأرى اثر سم الاستركينين • ولم تكن دهشتى مليئة عندما وجدت أن الحمار الضخم الثقيل (المتعفن) قد اختفى . وليس من أثر لسحب أو جر على الأرض • ولم يبد تغير على الحشائش ، وبدا وكأن حيوانا مفترسا عملاقا قد حمل الحمار الثقيل بعيدا ، لأن بعض القطع الصغيرة التى نثرناها حول جثته لم يعد لها وجود أيضا ، وبحثنا حولنا فوجدنا حيوان ابن آوى ضخما لا يبعد الا بحوالى عشرين خطوة • كان حيوان ابن آوى هذا يختلف عن ابن آوى المصرى فسيقانه أطول وحجمه أضخم وذيله أقصر وأكثر شعرا • وكان فراؤه أصفر لا يقطع صفرته غير خط أزرق يعترى زرقته شىء من اللون الرمادى ـ يمتد بطول ظهره • لقد بدا المخلوق الجميل مختلفا عن أى حيوان ابن آوى آخر اصطدته من قبل •

وسرعان ما وجدنا آثار دماء تسير فى خط مباشر من الموضع الى الطريق ومن ثم عبر الطريق الى السور • وهنا أمكننا أن نرى أن الحمار (النتن) قد تم سحبه فوق الصخور لأن شعره ودماءه كانت متناثرة عند الزوايا الحادة ، ومن الناحية الأخرى (الجانب الآخر) تم حمل الجيفة مرة أخرى، واتخذت آثار الدماء بعد ذلك اتجاه أحد الوديان العميقة التى تؤدى للجبال بالقرب من (نهر الأردن) •

وزحفت ـ بحذر ـ للأمام ، ونظرت من فوق رابية صغيرة ، فرأيت على بعد خمسين خطوة للأمام شيئا داكنا والى جواره حيوان صغير برتقالى اللون ، لقد كان هذا الحيوان هو ابن مقرض (بكسر المميم وتسكين القاف وكسر الراء) ferret وكان حيوانا مدهشا جميلا انيقا انه ثعلب الصحراء (desert fox) بأذنيه الطويلتين الخفاشيتين • لقد كان يتناول افطارا مريحا ، فماجلته بطلقة فهوى •

ولما أسرعت للبقعة وجدت طريدتي وقد مالت برأسها على الحمار • وكما هي العادة ، فانني تفحصت كل شيء بعناية ودقة • أما الحمار الضخم الثقيل ـ وهو من سلالة أسيوية كبيرة الحجم ، وكان كبير السن ـ فقد تم تجريده من لحمه ، وكان يمكنني أن أرى آثار أسنان طريدتي • لقد أتى حيوانى المتوحش على بقية جسد الحمار • لقد استطاع ابن مقرض (ثعلب الصحراء) احضار حمار كامل الى هذه البقعة • انه لم يسحبه بل حمله فوق ظهره • والضباع ضخمة جدا وقوية ولكنها ليست قادرة ـ فيما أرى ـ أن تفعل شيئا كهذا ، كما أنها لم تتعود على نقل فريستها دون أن تتذوق شيئا منها ، وانما هذا هو أسلوب الدببة • وشعرت بالاقتناع أن الدب الايزابيلى السورى الأصفر a Yellow Syrian Isabel-beer الذى ذكر برهم Brehm أنه رآه فى فلسطين ، قد أوقعنا فى هذه الخدعة ، آه لو أن القمر كان بدرا لكنا قد استمتعنا بليلة رائعة ، وعدت الى القلعة مغيظا متعكر المزاج وتناولت افطارى • لقد كان الطريق يغص بالحياة : قوافل حمير وجمال محملة بالمؤن لسوق القدس وأمكن للمرء أن يرى أزياء متباينة ، وبشرا من رجال ونساء من أنواع تجذب العيون •

وسرعان ما ظهرت أمتعتنا وكل دواب التحميل التابعة لقافلتنا يقودها السيد هوارد Howard ، قادمة من ناحية بيت

المقدس فقد جمعت الخيام كلها في الصباح ، وتجاوز السيد هوارد والدواب التي معه القلعة وتقدموا ليقيموا لنا معسكرا نقضي فيه الليلة التالية الى الأدنى من بيت لحم • وكان على الرفاق أن يقضوا فترة ما قبل الظهر في القدس ولن يصلوا تنتور Tantur قبل الظهر ، فقضيت فترة الانتظار هـذه في مراقبة الطيور الكاسرة الكبيرة عنـد المكمن (السـابق اعداده) • لقد تم سحب رأس الحمار في الوقت نفسـه الى أعلى السقيفة ، وكان لدى خطط لوضع السم في الليلة التالية في البقايا الأخيرة لحمارنا الرائع هذا •

ومرت اللقالق بأعداد كبيرة من الجنوب للشمال وسرعان ما تبعتها جماعات النسور اليومية • لقد أتت من قبل جبال البحر الميت قاصدة المدن ــ خاصة القدس ــ لالتهام الجيف • مئات من النسور وطيور العقاب واحدها في اثر الآخر ، وكان المكمن ــ لسوء الحظ ــ قريبا جدا من الطريق الذى لا تكف القوافل عن المرور به ، ومن هنا ، فان الطيور كانت تحلق عاليا ولا تغامر بالطيران على ارتفاع منخفض • نسر واحـد كان لديه الشجاعة للمرور بالقرب من السقيفة عدة مرات ، وأخيرا دفع حياته ثمنا لجرأته هذه •

الوصول لبيت لحم :

وبعد ذلك عدت مرة أخرى للقلعة وانتظرت مع الكونت كابوجا Caboga وصول رفاق السفر ، وسرعان ما وصلوا ، راكبين خيولا تجرى خببا الى سـاحة القلعة ، وكان عـلى أن أقص عليهم ما خضته من تجارب في الصيد وأن أعرض عليهم ما اصطدته في الساعات القليلة الماضية • وأمتعنا الكونت كابوجا بافطار ممتاز ، وبدأنا رحلتنا القصيرة الى بيت لحم : بعضنا على ظهور الجيـاد وبعضنا الآخـر في العربات التى تجرها الدواب •

وكان الطريق الحجرى السيىء متعرجا بين الأسوار القديمة وحدائق أشجار الزيتون والبيوت الآيلة للسقوط ، كما كان الطريق ينحدر دائما نحو سفح التل الذى تقع عليه مدينة بيت لحم المشهورة مسقط رأس المسيح (عليه السلام) Our Saviour (*) .

واسم بيت اسم قديم جدا ويعنى باللغة العبرية (موضع الخبز The place of breed) ، ووفقا لما قصه الكتاب المقدس فإن هذه المدينة كانت مشهورة بسبب خصوبة المنطقة حولها، وبسبب كونها مقرا لبيت داود the House of David .

واسم افراتا Ephrata — يعنى أيضا خصوبة المنطقة وكثرة ثمارها — كان يتردد فى أغانى وتحذيرات الأنبياء : « وأنت يا بيت لحم افراته وأنت صغيرة ، أن تكونى بين ألوف يهوذا ، فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطا على اسرائيل، ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » (**) .

« And Thou, Bethlehem Ephrata, Though Thou be little among the thousands of Judah, out of thee shall. He Come, forth me that is to be ruler in Irael, Whose goings forth have been from of old- from everlasting ».

لقد تم تشييد بيت لحم على سفح التل . ان منظرها جدير بريشة فنان ، وتمتد المدينة على هذا التل لمسافة . وبين المنحدرات الصخرية توجد حدائق الزيتون والأعناب ، مما يعطى المكان هواء المنتجعات الخضراء . ومنازل بيت لحم من أحجار ، وأسطحها مستوية . وتعطى قباب الكنائس وأبراجها ، وكذلك الأديرة والمدرجات فوق التل — انطباعا بأن هذه المدينة أكبر مما هى عليه فى الواقع .

(★) الترجمة الدقيقة : مخلصنا ، وآثرنا ما أوردناه فى المتن لان المعنى المقصود لا يختلف — (المترجم) .

(★★) ميخا ٥ : ٢ عن سيرة المسيح فى كنيسة قصر الدوبارة ص ص ٤٢ — ٤٣ — (المترجم) .

وبعد أن تجاوزنا المساكن الأولى ، استدرنا لنسير في شوارع ضيقة ، غير مستو رصفها ، وعلى الجانبين مساكن بها أشغال خشب غير رقيقة ، وجدران قديمة عابسة ، وأول انطباع يخرج به المسافر أثناء سيره في هذه الطرقات أنه في حالة صعود وهبوط مستمرين • وعلى أية حال، فقد كان ذلك مجالا للدراسة الاثنوجرافية الشائقة ، فبيت لحم أكثر شبها بالمدن العبرية القديمة من القدس فالبشر الذين يراهم المرء على أسطح منازلهم وفى الطرقات ، وفي الشرفات لهم صفات اليهود القدماء نفسها كما وردت فى الكتاب المقدس (*) . تماما كما نتخيلهم • انهم يضعون على رءوسهم عمائم ضخاما وأثوابا زخرفوها بالزهور وصدريات متألقة ، والأثرياء منهم يلبسون ملابس كالتى كان يلبسها الفريسيون Pharisees أما الفقراء فيشبهون أولئك الذين سمعوا كلمات الحياة والوصايا من شفاه يسوع المسيح عليه السلام (المخلص Redeemer) فى الطرقات والميادين •

ان الوجوه يهودية بشكل واضح : الأنف الطويل المعقوف والبشرة الشاحبة واللحية السوداء أو الحمراء المضفورة لتنتهى بشعبتين (تنتهى بنقطتين) ، وهو ما نراه فى صور السيد المسيح وحوارييه ، أما النساء فأكثر لفتا للنظر فهن ملتفات فى أثواب واسعة مسبلة ملونة وقد لففن فوق رءوسهن ثيابا بيضا ، وبشرة الواحدة منهن شاحبة وعيونها فى الغاية من الجمال وكذلك ملامحها وشعرها • جمال يفوق الوصف • لم أر أبدا نساء أجمل من نساء بيت لحم • أهذا العدد الكبير من النساء الجميلات فى مدينة واحدة !! ان هذا لا يتأتى فى أى مكان آخر • ان المرء لا يستطيع أن يلاحق

(*) مع انهم من المسلمين والمسيحيين ، وهذا يؤكد ما ذكرناه فى حاشية سابقة فى الباب السابع ، أن الأرشيدوق لم ير فروقا عرقية بين أهل البلاد بصرف النظر عن دينهم — (المترجم) •

بعينيه هنا كل النساء الجميلات • عاصفة من الجمال تتلوها عاصفة أخرى • انهن نماذج من العذراء مريم النبيلة • والنساء الكبيرات منهن اللائي قرأنا عنهن في العهد الجديد يسرن هنا بشحومهن ولحومهن • فالمسافر المندهش يجد نفسه وقد انتقل في حلم الى أيام السيد المسيح (المنقذ Saviour) عندما آوت مريم العذراء الرجل الطيب في اصطبل بائس ، وعندما تتبع حكماء الشرق — القادمون من وادي الأردن حيث ممالكهم البدوية المتحررة موجودة كما هي موجودة الآن — النجم •

ان بيت لحم ومواضعها المقدسة هي بالضبط كما نراها في صور رسامي العصور الوسطى الأتقياء ، وكما نراها في التماثيل والنماذج الملونة التي نقدمها للأطفال في أعياد الميلاد •

وسكان بيت لحم معظمهم مسيحيون ، وجملة سكانها خمسة آلاف نسمة ليس منهم الا ثلاثمائة مسلم (*) •

وخرجنا من الشوارع الى ميدان تحيط به منازل شرقية . في أحد جوانبه تقع كنيسة العذراء العظيمة والبنايات الأخرى ملتصقة بها • ان أكثر البقاع قداسة موجودة تحت سقف واحد ، وهي أماكن مقدسة للكاثوليك Latin واليونانيين والأرمن ولكل من هذه المذاهب الثلاثة دير خاص بمعتنقيه ومتصل بالكنيسة •

وانتظرنا راعي تراسانتا Terra Santa عند البوابة الكبرى للكنيسة مع بعض الفرنسسكان ، وكان الميدان مزدحما بالناس وتسلمنا مالا يحصى من الالتماسات في غضون دقائق قليلة • كانت الكنيسة قديمة وجميلة ، ذات أصل بيزنطي ، وقد بقيت منذ أيام الامبراطور قسطنطين

(*) ومع هذا فقد رأى فيهم الملامح الفيزيقية الواحدة ، مما يؤكد خرافة التمييز العرقي — (المترجم) •

الذى شيدها • وداخل الكنيسة يدهش المرء لكثرة الصوامع التى أضيفت بمرور الزمن ، كما يدهش لكثرة الأبواب الضيقة والمنخفضة والتى لا يستطيع المرء أن يجتازها الا بشق الأنفس • وهدف خفض هذه الأبواب وتضييقها هو حماية الأماكن المقدسة من غارات القبائل العربية التى لا تبعد مضاربها كثيرا عن هنا والذين لا يحكمهم قانون بالمرة • وتحمل الكنيسة بمصلياتها وصالاتها الطابع المسيحى الباكر فى العصر البيزنطى •

ومما لا يبعث على السرور أن كثيرا من أعمال الخزف القديمة وكذلك الرسوم قد تأثرت أو تساقطت وأن التماثيل قد كسرت • والكنيسة ـ بشكل عام ـ لا تحظى بالصيانة الجيدة • ويرى المرء داخلها ـ حيثما التفت ـ نتائج الحلول الوسط (التسوية) بين المذاهب الثلاثة ، فالمذابح (جمع مذبح) وأجران المعمودية fonts وأضرحة قديسى الأديان المختلفة the different religions (*) كلها جنبا الى جنب ، وثمة أعداد غير قليلة من القسس الفرنسسكان اليونانيين • وقد حضر هنا عدد قليل من المقدسين (الحجاج) ومعظمهم من الفلاحين الروس ، لكن العدد الأكبر كان من سكان بيت لحم لأن معظم سكانها من المسيحيين ، وقد تبعونا فى جولاتنا ، وكان من بينهم من يحمل أجمل ملامح يمكن للخيال أن يصل اليها •

وكانت المغارات المقامة تحت الأرض هى أكثر المواضع اثارة ، وقد وصلنا لمصلى الميلاد Chapel of the Nativity ذات النور المتألق عبر مجموعة طويلة من السلالم وخلال أبواب من (داخل) الكنيسة • ويوجد المذبح فى محراب الى

(*) ربما يقصد المذاهب المختلفة ، وربما كان التعبير مقصودا وهو أن الخلاف بين الكاثوليكية والأورثوذكسية اليونانية والأورثوذكسية الأرمنية عميق لدرجة أنه اعتبرها أديانا ـ منفصلة ـ (المترجم) •

الشرق ، وبه نجمة فضية ملتصقة بالجزء الداخل منه ، وحوله هذه الكلمات :

« Hic de Virgine Maria Jesus Christus natus est ».

وتترك الحجرة الضيقة العابسة أثرا كبيرا في مشاعر المقدس (الحاج) ، ويثير الايمان القديم المطلق بالحقائق الروحية وثقل التراث والايمان الراسخ بأن المسيحية قد ولدت هنا ، وأنه من هنا انتشر هذا الدين الذى غير وجه العالم — كل ذلك يثير مشاعر وقورة وسامية ، فالمقدس (الحاج) يركع — من تلقاء نفسه — على ركبتيه ويقبل الحجر الذى ضغطت عليه آلاف الشفاه قبله ، آخذا على نفسه عهد الاخلاص بوجد ديني شديد .

والى الأدنى (الأسفل) بثلاث خطوات يوجد مصلى المهد Chaple of the Cradle ، حيث يوجد مهد السيد المسيح وفقا للمرويات — وفى مواجهته أطلعونا على البقعة التى ركع فيها حكماء الشرق الثلاثة أمام الطفل المقدس The Divine Child اجلالا وولاء .

وفى ممر تحت الأرض وصلنا لفجوة في صخرة جرداء انفجر منها ينبوع ماء للعائلة المقدسة ، وثمة باب يؤدى الى ممر آخر حيث أطلعونا على البقعة التى تلقى فيها يوسف الأمر بالهروب الى مصر ، والى الأدنى توجد مصلى كالكهف هى مصلى البراءة Chapel of Innocents حيث خبأت أمهات بيت لحم أطفالهن الذين أمر هيرودوس (*) بذبحهم .

وأدى بنا الطريق بعد ذلك الى مذبح القديس يوسيبيوس من كريمونا Cremona وقبره ، وهذا القديس كان تلميذا للقديس جيروم Jerome ، وقد تم اغلاق قبر هذا

(*) الوالى اليهودى الذى عينه الرومان — (المترجم) .

القديس الذى يعد من آباء الكنيسة (يوسيبيوس) قريبا ، ورأينا بالقرب منه مصلى منحوتة فى صخرة حيث كان يعيش ويكتب . وبذلك نكون قد رأينا كل المواضع الواقعة تحت الأرض ، فصعدنا مستخدمين السلم عبر كنيسة سانت كاترين St. Catherine لندخل الدير الكاثوليكي The Latin Convent انه دير بسيط لكنه يحظى بصيانة جيدة وقد أمتعنا الفرنسسكان فى حجرة الطعام الملحقة بالدير بمشروبات حلوة معطرة liqueurs . وبعد أن مكثنا قليلا دعانا الاسقف اليونانى بعبارات ودودة للغاية لزيارة ديره ، وهو — اى الأسقف اليونانى — رجل فى مقتبل العمر ذو لحية سوداء طويلة وملامح وسيمة وهو يونانى قح لطيف ودمث .

والدير اليونانى مبنى مسطح يسكنه رهبان مذهب القديس بازل the order of St. Basil ، وهم أرثوذكسيون — الى أقصى درجة — فى تنظيماتهم وطقوسهم التى تختلف اختلافا بينا عن الطقوس الكاثوليكية Latin . وجلسنا فى غرفة جرداء ليس بها أحد ، الا أنها — على أية حال — أتاحت لنا أن نرى من خلال نوافذها منظرا جميلا للمدينة وما حولها .

وقد جلست أنا وعمى والأسقف على كنبة واحدة ، وما كدنا نجلس حتى ظهر القسس ليقدموا لنا شرابا كريها horrid وتعللنا بمختلف العلل لنهرب من هذا المكان وذهبنا الى مغارة (كهف) اللبن Milk Grotto ، فوصلناها عبر مدخل عريض ودرجات (سلالم) قليلة . ووفقا للمرويات فقد سقطت هنا قطرات من حليب الأم على الصخرة عندما كانت العائلة المقدسة مختبئة هنا . وتزور نسوة كثيرات هذه البقعة اعتقادا منهن أن سكب حليب أثدائهن على هذه الصخرة سيزيد من ادرارهن للحليب اللازم لأطفالهن . ويوقر المسيحيون والمسلمون هذا الغار والمذبح المقام به تابع

للكاثوليك ، وبعد أن استأذنا من رجال الدين الكاثوليك والأورثوذكس أسرعنا متجاوزين آخر مساكن المدينة على طول جانب التل بين بساتين الزيتون والأسوار الحجرية حتى وصلنا لمسكرنا الذى يقع بالقرب من قرية بيت ساحور Betsahur وهى قرية غير نظيفة لكن موقعها جيد .

وازدحم السكان حولنا بفضول ، ووجد العسكر الترك صعوبة فى اخلاء معسكرنا وسرعان ما ظهر صيادان وقدما خدماتهما . لقد كانا أخوين ظريفين من أهل بيت لحم يلبسان الملابس اليهودية (*) كاملة ويبدو عليهما شيء من التشرد ويتعيشان من صيد طيور الحجل . وكان أحدهما يتحدث الفرنسية بشكل جيد ويبدو أن له مقابلات مع عدة قبائل بدوية فيما يتعلق بأمور الصيد وقد أخذ على عاتقه أن ينظم أمر صيد تيوس الجبل (الأوعال ــ جمع وعل) وأن يقدم لنا نماذج حية وصغيرة السن منها . لقد كان مسيحيا مثل (معظم) سكان بيت لحم ، وحارب ببسالة فى الجيش الفرنسى ضد الألمان .

وقابله الكونت ليسبس Lesseps خلال رحلته فى فلسطين واتخذه خادما ، وعمل على ادخاله الجيش الفرنسى الذى كان متوجها الى الرين Rhine ، وبهذه الطريقة اشترك فى معركة ١٨٧٠ وعاد الى بيت لحم ــ بعد احلال السلام ليباشر عمله الأصلى كصائد طيور حجل .

لقد انطلقت أنا وهويوز Hoyos مع هذين الشابين لنفتش المنطقة استعدادا لفترة ما بعد الظهر ، وأثناء تقدمنا فى الوادى نحو الشرق مررنا ببعض القطعان ، وقد سرنى

(*) ليس معنى هذا انهما يهوديان ، وانما الملابس التقليدية متشابهة فى الأديان الثلاثة ــ المترجم .

كثيرا منظر ملابس الرعاة التى تحتاج لرسام يصورها لفرط طرافتها . ان المتعبدين الأوائل عند مهد المسيح عليه السلام (النص : the Cradle of the Son of God) كانوا بالتأكيد يشبهون هؤلاء الذين يجوبون التلال بماعزهم وهم يغنون أغانيهم الرتيبة .

وأصبحت التلال أعلى ، وازداد انحدارها شيئا فشيئا ، وكانت مغطاة بحشائش صفراء . لقد لاحظت الان أن هناك تغيرا فعليا فى طبيعة الغطاء النباتى . وتعد بيت ساحور آخر قرية فى هذا الاتجاه ، وعند بداية الجبال الخضراء الداكنة والغطاء النباتى (المختلف) للأردن تكون قد دخلت منطقة القبائل البدوية ، والحذر عندئذ واجب .

وتسلقنا التلال بجهد ـ لكن بشغف ـ ، فرأينا وسمعنا بعض طيور الحجل ، لكن القليل الذى لاقيناه فى المناطق المجاورة لبيت لحم أصبح كثيرا هنا لكن فرصتنا فى اصطياده كانت قليلة . وطفنا ـ مع صيادينا الماهرين ـ فوق بعض التلال راجعين فى اتجاه القرية ودخلنا منطقة أشجار الزيتون وتحاشينا الحدائق .

والى الجنوب من سلسلة التلال التى تقع عليها بيت لحم وبيت ساحور يوجد واد عميق منبعج ، على جانبيه مدرجات ينمو عليها الزيتون والأعناب ، وبين هذه المنحدرات الصخرية وأكوام الحجارة تكونت فجوات وبيئات ملائمة مغطاة بنباتات ذات خضرة دائمة ـ وقد أعطت للرائى منظرا جميلا .

وكان بطن الوادى الضيق ممتلئا بالكتل الصخرية الكبيرة والجدران القديمة والخزانات، وثمة ممر ضيق صغير للقطعان يتعرج من القرية صاعدا جانب التل المواجه . وتسلقت أنا وهويوز Hoyos بين أشجار الزيتون والصخور بحثا عن الطيور التى كان صوتها مسموعا ، لكن الدوق الكبير

وبعض الرفاق الآخرين ظهروا فجأة في الجانب المقابل بالقرب من القرية ، وبذلوا جهدا كبيرا ليجعلونا نفهم بالاشارات انهم سيمارسون الصيد في المنطقة الواقعة اسفل منا تقريبا ، لقد حالت المدرجات بيننا وبين القاع نظرة شاملة كاملة ، لذا فقد اسرعنا عابرين الى المنحدر الآخر وعلمنا أن حيوان ابن آوى كبيرا حجمه كان يسير بتمهل الى الأدنى منا ، عند أحد المنبسطات المدرجة التي كنا نحن فوق المنبسط الأعلى منها مباشرة ٠

ومن ثم فقد تفرقنا في مواقع مختلفة في الوادي لنكمن في انتظار هذه الحيوانات وهي خارجة من مكامنها عند الغروب ٠ وقد أكد رفيقي الشرقي أن الواوي Wavis يحب ايضا هذا المكان كثيرا ، فالعرب الفلسطينيون يسمون ابن آوى باسم الواوي Waui وليس (تعلب) كالمصريين ، وبشكل عام فالحديث باللغة العربية هنا يختلف كثيرا عن حديث المصريين بها ، كما أن اللغة العربية هنا أكثر غموضا (فهمها أصعب) ٠

كان المساء جميلا وشاهدنا غروب الشمس ، وعادت القطعان ومعها الرعاه ، وكان منظرهم رائعا ، واختلطت أصوات الأجراس بأغانيهم ، وكان في استطاعتنا أن نسمع السلام المريمي Ave Maria يدق في بيت لحم ، وامتدت الظلال ، وتلاشى الشفق الأحمر من جبال البحر الميت وطارت الطيور الى مجاثمها ، وانزلق ابن آوى كالشبح عبر الوادي ، واتجه نحو مكمني لكن الرياح لم تكن مواتية واختبأ الحيوان الماكر خلف بعض الصخور ٠ ان الوديان الصغيرة المنعزلة في فلسطين تشهد تحركات غريبة ومسعورة ، فالمرء يمكن أن يتخيل أن هذه الأودية ملائمة للحيوانات المفترسة : الضباع وحيوانات ابن آوى والذئاب تتجمع وتعوى بالقرب من القبور ٠ لقد غادرت المكان الذي تسوده برودة غير شديدة ،

قبل أن تصبح الظلمة حالكة وأسرعت متجاوزا القرية الى المعسكر ، وطار شبح طائر غير بعيد عنى فأطلقت طلقة عشوائية ، فهوى لقلق مسكين مصاب بجرح مميت ·

وفي صباح اليوم التالى ، بدأنا مبكرا فركبنا الى بيت لحم · وجدنا هناك ــ مرة أخرى ــ زحاما شديدا فاندفعنا بخيولنا الصاهلة بصعوبة وسط الجموع الى باب الكنيسة ، واصطحبنا الفرنسسكان الى مصلى المولد Chapel of the Nativity حيث كان القس يقيم القداس وتزاحمت الجموع أمامنا على المواضع المقدسة تحت الأرض ، وركعت بعض نسوة بيت لحم الجميلات جمالا مدهشا ــ ركعن على الصخرة الجرداء · لقد كن متألقات تألقا غريبا فى ضوء المصابيح الخافت ·

وبعد ذلك أسرعنا للميدان حيث خيولنا وكانت هناك مفاجاة مدهشة تنتظرني ، فعلى شرفة منزل انطرح ضبع كبير حجمه ، وله شعر طويل حول عنقه ، وجلد مدهش ، والى جواره انطرح حيوانان من حيوانات ابن آوى كانا أصغر منه حجما ، ولونهما مختلف عن حيوانات ابن آوى التى رأيناها فى اليوم السابق ، وكانا أكبر حجما من النوع المصرى Canis aureus ومنظرهما مختلف عنه · لقد أحدث السم أثره ، فمنذ يوم مضى كنا قد تركنا رأس حمار مشبعة بسم الاستركينين ، ومن الطبيعى أن هذه الحيوانات الجائعة قد أكلت هذا الطعم بشره فلاقت حتفها · وأرسلت الغنيمة على ظهر حمار الى الخيمة التى نحتفظ فيها بحصاد صيدنا ·

وركبنا عائدين من الطريق نفسه ، الذى سلكناه البارحة الى تنتور Tantur ــ الى القلعة الملطية الرائعة · وعندما وصلنا اليها قررنا أن نمسح التلال الجرداء المجاورة شيئا فشيئا لنصطاد ما بها · فطلبنا أكبر عدد ممكن من مثيرى الطرائد من مكامنها ، فجمعنا معنا خدم الكونت كابوجا Caboga

وساتسي الخيول في معسكرنا والرعاة وأهل المنطقة الذين خرجوا للتريض ـ كل هؤلاء صحبونا • واتخذ بعض الرفاق لأنفسهم موقعا في الوادي عند المنحدر الجنوبي للتل لاطلاق النار منه ، اما انا وهويوز Hoyos ومساعدو الصيد فقد تبعنا خط مثيري الطرائد ، وعند اشارة متفق عليها بدءوا عملهم ، وساعدنا أيضا بعض جنود الدرك الاتراك ، وقد اظهروا براعة في هذا النوع من الرياضة •

وراحت بعض طيور الحجل وطائر سمان بائس تطير أمامنا وقفز ابن آوى أمامنا أيضا ـ ولسوء الحظ ، فانها ، جميعا لم تكن في اتجاه تصويب البنادق • ولم يحدث آن سقط صيد الا قرب نهاية عمل مثيري الطرائد ، فقد طارت بعض الطيور فوق الرفاق وأطلقوا النار فسقط واحد منها • وأطلق كورنسكي Chorensky النار على ارنب برى داكن سوري اصيل ، فأصابه • لقد كان أرنبا أكثر نحولا وأصغر حجما وأدكن لونا من أرانب الحقول البرية عندنا ، وان كان يشبهها أكثر من شبهه للأرانب البرية الصحراوية في افريقيا •

وبعد هذا النجاح غير الكبير تجاوزنا مكمن الضباع الذي كنا قد اعددناه سابقا الى دير مار الياس Mar Elyas ومنه كان يمكننا آن نحظى بمنظر رائع لمدينة القدس • لقد كانت هذه آخر نظرة نلقيها على القدس وما حولها فمنذ الآن يصبح اتجاهنا شرقا فشمالا •

ومن الدير سرنا لمسافة طويلة لصيد طيور الحجل البوهيمية Bohemian (*) التي مرت أسراب منها ذات مرة فوق معسكرنا • لقد قطعنا مسافة طويلة فوق أرض تعلو

(*) من بوهيميا ـ (المترجم) •

لتنخفض وتنخفض لتعلو ، تل يرتفع في اثر تل ، يفصل بينها (التلال) وديان عميقة · وجعلنا مثيرى الطرائد يسبقوننا وجعلنا مساعدى الصيد وباقى الرفاق في الوسط، وبهذه الطريقة أمكن مسح شريط أعرض من المنطقة ·

الشمس حارقة ، والهواء راكد والسماء زرقاء لا سحاب فيها ووهج الظهيرة شديد ، وفي هذا الجو فان تسلق التل الاول كان عملا شاقا ، خاصة ، وجوانب التل شديدة الانحدار والحشائش القصيرة التى تغطيها زلقة ، وليس ثمة أحجار تصلح أن يتخذها المرء مستقرا لقدميه ، وانطلقت بعض طيور الحجل بعيدا وأخطأ كورنسكي Chorinsky اصابة حيوان من حيوانات ابن آوى ، وقتل الدوق الكبير حية كبيرة جدا كان صيدها يحتاج الى طلقة مصوبة تصويبا دقيقا ·

لقد تسلقنا حتى القمة تلين أخضرين تكسوهما الحشائش ، لكن مثيرى الطرائد كانوا يتبعوننا متكاسلين · وشيئا فشيئا افتقدنا الخطط الأوربية المحكمة من حيث المساحات المتروكة بين المجموعات ، وشكل الزحف (التقدم) الصحيح المنضبط · ان المنطقة الآن ذات طبيعة مختلفة : منحدرات صخرية ملساء وكهوف ومغارات ، وبينها أسوار قديمة ومدرجات معدة لزراعة الأعناب ، والزيتون ، وثمة وديان صخرية مثل الوديان الكائنة خلف قرية بيت ساحور — موجودة هنا بين هذه التلال · وما كدنا ندخل هذه المنطقة (الصخرية) حتى قفز حيوان من حيوانات ابن آوى من جانب احدى الصخور، وكان أدنى منى مباشرة ، فأطلقت فى اثره طلقة فهوى ، لكن الحيوان الماكر — رغم جرحه المميت — اختفى مرة أخرى فى جحر عميق ·

ولأننى كنت راغبا فى الحصول على غنيمتى فقد أرسلت مساعد الصيد التابع لى الى المعسكر ، لاحضار كلاب الدشهند

وانتظرت بالقرب من البقعة التي اختفى فيها الحيوان وأنعشني أحمد Achmed المخلص النشط بشراب ليمون ، وواصل بقية الرفاق طريقهم الى المعسكر ، وأطلق الكونت فالدبرج Waldburg طلقة مرت قريبة جدا من واحد من طيور الحجل •

وسرعان ما عاد مساعد الصيد التابع لي مع ثلاثة كلاب دشهند ، فجرى الكلب شيك Scheck ـ وهو اكبرها واقواها ، وهو سلافوني بالمولد Sclavanion ـ بشغف ودخل الجحر ، وتبعه الكلبان كروات Croat (لعله من أصل كرواتي) (*) وأوبكا Opeka ، لكن مرت لحظات قبل أن نسمع جلبة تحت الصخور • لقد ظننت في البداية أن ثمة معركة تجري مع الحيوان الجريح ، لكنني سرعان ما اكتشفت الحقيقة فقد القيت نظرة في الجحر تبين لي من خلالها أن الكلاب الشجاعة خارج الحجر •

اننا الآن في طريقنا الى المعسكر عبر جرف صدعي صعب للغاية ، وتركت الكلاب تفتش بعض الكهوف التي تبدو من خارجها آثار أقدام حديثة للثعالب وحيوانات ابن آوى ، ولم نر آثار ضبع الا مرة واحدة • ولم يكن لهذا البحث ـ لسوء الحظ ـ نتيجة ، وكانت الشمس حارقة وانهكت الكلاب سريعا بفعل الصخور الساخنة •

وسرعان ما وصلنا للمعسكر ، وكنا في حاجة للراحة لساعات قليلة ، وقبل الغروب تسلقت مع فالدبرج Waldburg المنحدرات القريبة من الوادي نفسه التي كنا قد أعددنا فيها في المساء الماضي مكمنا لصيد حيوانات ابن آوى ، ولم تنجح

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

محاولاتنا في الامساك بواحد من طيور الحجل كان يقفز حول الصخور ، كما لم يسفر بحث الكلاب عن شيء ، فاقنعنا نفسينا بتسلق المنحدر المواجه الى قمته لنلقى نظرة على جبال البحر الميت ، وكان المنظر جميلا . وعدنا ــ وقد هبط الليل ــ الى المعسكر ، وسرعان ما غمر السكون المكان واستغرق الجميع فى النوم استعدادا لرحلة الأيام القادمة فى وادى الأردن .

وفى الصباح الباكر لليوم الثالث من الشهر عم المعسكر حركة ونشاط فجمعت الخيام وتم تحميل الأمتعة فوق ظهور الجياد ، ووصلنا من تنتورTantur ضبعان بالاضافة لما عندنا ، وكانا ضبعين جميلين كانا قد تناولا جانبا من رأس الحمار المسمم .

وصل الى المعسكر بعض البدو من الجبال الواقعة الى الجنوب الغربى من البحر الميت ، كانوا أتباعا ظرفاء مفعمين رجولة ، وجوههم نبيلة وكانوا أقوياء وبشرهم أكثر دكانة . وكانوا من قبيلة فقيرة لكنها قوية وغير ملتزمة بقانون . وكان احدهم ــ ربما كان هو شيخ القبيلة ــ يضع فوق رأسه عمامة ، جانب منها ملون ، ويلبس ثوبا أبيض تماما وحذاء أصفر وثبت في وسطه سيفا تركيا معقوفا ذا نصل واحد ، ولم تكن تعبيرات وجهه ، ولا ملامحه الدقيقة ولا فمه المحدد بحدة والذى تلعب حوله ابتسامة ساخرة ، ولا عيناه السوداوان النفاذتان ، لم يكن شيء من هذا يبعث على الثقة .

وكان هؤلاء البدو عربا خلصا فى عاداتهم ومظهرهم ، وكانوا مختلفين تماما عن سكان بيت لحم ذوى الطابع العبرى (اليهودى) (*) ــ وقد أتوا الينا ليعرضوا بيع ثلاثة تيوس

(*) رغم انهم غير يهود ــ (المترجم) .

(وعول) من تيوس الجبل وقد اشتريتها منهم • وقد رغبوا الينا أن نعد حملة للصيد بين تلالهم الجرداء ، حيث تتوفر التيوس (الوعول) العربية ، وهي حيوانات جميلة لها قرون غضروفية طويلة ـ بأعداد كبيرة ، ولم يكن من الممكن اجابتهم لهذا العرض ، وهذا مما يؤسف له فلم يكن لدينا وقت ، فما هي الا أيام ونتجه على طول ساحل البحر الميت الى أقصى نقطة فيه عند الجنوب الغربي ، فكنت مضطرا ـ لهذا ـ رغم حزني لضياع الفرصة ـ أن أرجع هؤلاء الأطفال داكني البشرة لمضاربهم ، بعد أن واسيتهم بدفع بقشيش •

وكانت خيام المعسكر قد جمعت بسرعة غير عادية وتوجهت القافلة بارشاد السيد هوارد Howard نحو بير سبع Mar-Saba وركبنا مرة اخرى صاعدين الى بيت لحم حيث كان القس يرتل القداس، واستاذنا من راعي ترأسانتا Torra-Santa والفرنسسكان التابعين له في الميدان خارج الكنيسة ، وأحاط بنا زحام شديد وراحت نسوة بيت لحم الجميلات يتفحصننا بفضول ، وخوفا من أن تنهمر علينا الالتماسات مرة أخرى فقد أسرعنا تاركين الموضع المقدس الذي ولد فيه المسيح (عليه السلام) • لقد تركنا خلفنا آخر المدن وآخر سكان للأرض الزراعية ، وأصبحنا الآن ـ ولفترة ـ من قاطني مناطق البدو الأحرار ـ البدو الحقيقيين •

وعند مغادرتنا بيت لحم كان علينا أن نمر على معسكرنا الحالي ، لكننا سرعان ما رحنا نضرب في واد ضيق تحيطه التلال الخضر الدواكن ، فاختفت من أمام عيننا بيت لحم وتنتور ومار الياس والجبال الحجرية والهضبة ومنحدراتها المزرعة •

لقد أصبحنا الآن نواجه منطقة لها طابع مناطق البحر المتوسط وطابع مناطق الاستبس الأسيوية والتلال الرتيبة ،

التى يكسوها عشب قصير والوديان المتموجة . وكان الطريق جيدا فى البداية وكنا نستطيع فى بعض الأحيان أن نرحب مسرعين عبر المروج الخضر، لكن بعد ذلك سرنا عند منحدرات صخرية أكثر حدة وفى ممرات يتحتم فيها أن يكون سيرنا على الأقدام ، كما أصبح مسيل الوادى (بطنه) صخريا ، وكان البدوى يركب فى المقدمة على حصانه المسرج خلق رغم أنه حصان كميت (بنى مشرب بحمرة) رشيق . لقد كان أحد شيوخ قبائل هذه الجبال . وكان يرتدى عباءة واسعة داكنة فوق سراويل خفيفة ، ويحمل سيفه المستوى ، وكذلك حذاؤه الأصفر أثرا من آثار الفقر .

ولم نحس باختلاف كثير فى الوادى الضيق ؛ وقد غرست هنا وهناك لافتات سيئة للتحذير ، وكان هناك ما يدعونا للاعجاب بمهارة الخيول العربية التى تستطيع السير على الحشائش الزلقة والصخور الناعمة فى مواضع يمكن أن تؤدى فيها أية خطوة غير محسوبة الى السقوط فى هاوية . ان عالم الحيوان غير ممثل كثيرا فى هذه التلال المنعزلة . فكل شىء ساكن خلا بعض النسور وطيور العقاب ، وبين الحين والحين تصادف بعض طيور اللقلق .

ورأينا على البعد مضارب بدو على قمة تل بعيد . ومن الخطأ الفاحش ان نظن أن الخيام ليست الا مواطن للسكن من قماش أبيض ولها شكل الهرم ، حيث تبدو مثلثة الشكل ويغمرها الهواء من كل جانب . فالواقع أنه توجد خيام مظلمة منخفضة من الجلد . وتصاعد عمود دخان أزرق من مضارب البدو تلك وكان الرجال والقطعان يتحركون حول مضاربهم الحالية ، ولا تسكن هذه المنطقة الا قبائل فقيرة جدا تتحرك بين الأراضى المزروعة فى فلسطين وبيت لحم من ناحية ، ووادى الأردن من ناحية أخرى . انهم يتحركون بالقرب من حدود التلال وما حولها ، ويتركون قطعانهم وخيولهم وماعزهم تباشر الرعى فى المنحدرات المعشوشبة

وينقلون مضاربهم متى دعت الحاجة • وغالبا ما يأتون بالقرب من المدن ليتاجروا بماشيتهم لكنهم لا يتلبثون هناك الا قليلا ، وهم يعترفون بسلطة السلطان (العثمانى) ، ويدفعون من الضرائب وفقا لما يناسبهم ، وغالبا مالا يدفعون شيئا ، فالسلطة (العثمانية) لا تزعجهم فى شيء • وهذه القبائل الصغيرة غالبا ما تنشب المعارك بينها وغالبا ما يكون ذلك بسبب سرقة الماشية ، أو سرقة فرس وهذا الوضع الأخير (سرقة فرس) نادر الحدوث •

الحياة الحقيقية للقبائل البدوية الكبيرة والقوية والغنية تبدأ عند نهر الأردن ، فعلى الساحل الشرقى للنهر تعيش الجموع الهمجية دون أى سلطان عليها بالمرة فهم لا يعترفون بالسلطان (العثمانى) ولا بخلافته ، واذا توانت القوات المسلحة التركية قليلا ، فان هؤلاء البدو يسبحون عابرين النهر المقدس (نهر الأردن) ليخربوا الارض المقدسة •

ووصلنا لنهاية الوادى الضيق بعد رحلة طويلة ، وأدى بنا الممشى (الذى يتحتم السير فيه مشيا على الاقدام) الى قمة الجبل العالى ، ومن هناك تجلى لنا منظر بهى ، فتحتنا مباشرة منحدر حاد — وعند قاعدته واد دائرى تحيط به التلال العالية ؟ والى اليمين والى الشمال تجد مالا حصر له من القمم العالية والحيود ridges والتلال الممتدة لمسافات بعيدة وكلها ذات لون أخضر داكن — انه منظر استبس حقيقى (سهوب حقيقية) ، ويؤدى ممر ضيق يشبه المسيل الى الخروج من بطن الوادى وذلك فى الاتجاه الجنوبى الشرقى • ومن خلال هذا الممر الضيق يمكن للمرء أن يلقى نظرة غير شاملة (نظرة قريبة محددة) على مياه البحر الميت عميقة الزرقة وعلى الجروف العارية البيضاء لسلسلة الجبال الجميلة على الساحل المقابل •

الممر يهبط متعرجا على طول المنحدر الشديد الذى تقف الآن عند نهايته الدنيا ، لكن الجزء الأكبر من خيول التحميل التابعة لقافلتنا كانت لا تزال تكافح فى هبوط هذا المنحدر الصلب كما يدل على ذلك رنين أجراسها المتواصل ، بينما وصل أسرعها بالفعل الى الوادى ، ونصب خدمنا الذين لا يكلون الخيام الأولى فى بقعة حجرية مستوية .

وواصل الرفاق طريقهم للخيام بينما فضلت أنا ومعى الدوق الكبير أن ننتظر على الحيد حتى يتم اعداد المعسكر بالكامل ، وفى هذه الأثناء أعددنا شركا ووضعنا طعما (حيوانا مذبوحا) واختبأنا خلف احدى القمم التى تتيح لنا الاقتراب دون أن تلاحظنا الطيور . مئات من النسور والعقبان (جمع عقاب) تأتى من جبال البحر الميت وتمر سربا وراء سرب فى الاتجاه نفسه . ان هذه الأسراب تتخذ رحلتها اليومية لمدينة القدس بدقة بالغة ، فهى ـ لهذا السبب ـ لم تلق بالا ولو بنظرة خاطفة لشركنا هذا ، غير أن غرابين وواحدا من نسور الجيف حلقت فوق الموضع دون أن تهبط .

كانت الشمس تحرق بعنف وليس من نسمة هواء تتحرك ، ولا من سحابة واحدة صغيرة فى هذه السماء الداكنة زرقتها .

وبعد ساعة غادرنا بقعتنا المختارة وسحبنا ذبيحتنا (شركنا) وراءنا ـ لأننا كنا راغبين فى استخدامها فى الصيد فى اليوم التالى ـ وهبطنا سيرا على الأقدام الى بطن الوادى .

لقد هبطنا أدنى فأدنى ، وكلما هبطنا أصبح الهواء ثقيلا شديد الوطأة . كان الجو البارد كالرصاص يسود جوانب الوادى . انه أول تحية يقدمها لنا البحر الميت ووادى الأردن . وفى غضون الأيام القليلة القادمة كان علينا أن نتعلم كيف نرهب هذا الجو ونخشاه .

وسرعان ما وصلنا للوادى حيث تمت اقامة معسكرنا بالكامل • لقد بدا فى موقعه كمدينة صغيرة وساد نشاط مفعم بالحيوية فى البقعة المهجورة •

وظهر الصيادان العربيان اللذان تبعا قافلتنا ومعهما مؤن كثيرة لمطبخنا ، وكانا يطلقان النار طوال الطريق أثناء قدومهما من لترون Latrun • لقد أحضرا معهما حصاد صيدهما : بعض طيور حجل الصخور الصغيرة • انها المرة الأولى التى نصل فيها لمناطق انتشار هذا الطائر الجميل •

والعرب ـ بأسلحتهم غير الجيدة ـ لا يستطيعون اطلاق النار الا على الطيور الساكنة (غير المحلقة) ، فهم يزحفون الى مكامنها تحت غطاء (ساتر) بنى أو بنى به بقع صفراء يمدونه فوق عودين من أعواد القصب ، ويتركون فى هذا الغطاء ثقوبا : ثقبان للرؤية وثقب لاطلاق النار ، ولا ترى هذه الطيور الغبية تلك الثقوب فتحدق فى الغطاء المتحرك حتى يأتيها الخبر اليقين ممثلا فى طلقات تهوى بها •

وتناولنا افطارنا حالما وصلنا ، بينما كان الخدم الشرقيون يعدون ـ بمهارة وحذق ـ مواضع لقضاء الليل ، فكان لابد من تحريك كل حجر وفحص الحشائش بدقة • لقد كانت العقارب الضخام كامنة فى كل مكان • لقد تعرفنا تماما على أصنافها الضارة الرديئة خلال الأيام الأخيرة لرحلتنا •

وبعد الافطار وافقنا على القيام بزيارة لدير Mar-Saba المشهور ، الطريق من العسكر يسير خلال الوادى الضيق الآنف ذكره ، كانت جوانبه المعشوشبة تنحدر بشدة للشمال واليمين ولكن ـ على نحو خطر مفاجىء ـ يغير شكله وينتهى كجرف صخرى شبه عمودى الى مسيل حجرى عميق •

الطريق يتعرج فوق الصخور عند أدنى حافة تنمو عليها الحشائش ، الصخور الى الادنى منا في كل المسيل ("الوادي الصغير) الغابس المظلم مليئة بالكهوف والزوايا والشقوق ، حيث تتكاثر أعداد كبيرة من حمائم الصخور والبازات الحمراء جنبا الى جنب ، بسلام وهدوء • وفى كل خطوة كنا نخطوها كنا نسبب ازعاجا لهذه الطيور التى راحت ترفرف باجنحتها فزعا ، منتقلة من أحد جوانب المسيل الى جانبه الآخر • وفى غضون نصف ساعة وصلنا لبرج قديم من ابراج المراقبة يقع على حافة الصخرة وعند انحدارنا من أعلى لم نر أية دلائل على وجود مؤسسات أخرى من المؤسسات الكنسية واسعة الانتشار والمطمورة بين صخور المسيل • وعند البرج لابد للمسافر أن يقرع بابه المحكم الاغلاق بكل قوته حتى يتحرك قاطنوه خلف جدرانه السميكة ويفتحوا الباب ببطء •

لقد كان على هؤلاء الرهبان البؤساء أن يتخذوا كثيرا من الاحتياطات لتامين الحماية لأنفسهم، لأن المسلمين يدبرون لهم كثيرا من المكائد غير الحسنة • وفى سنة ٦١٤ للميلاد نهب هذا الدير للمرة الأولى على يد الجيوش الفارسية الغازية بقيادة خرزويه Chosroes (*) •

(*) « ... استغل ملوك الفرس من الساسان فرصة ضعف الدولة البيزنطية وغزوا بلاد الشام ، واستولوا على القدس بقيادة مرزيه خرزويه سنة ٦١٤ م فذبح من سكانها تسعين الف مسيحي وهدم كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والدور والقصور وأخذوا البطرك الى بلادهم اسيرا ، ويجمع المؤرخون ان الفرس قاموا بهذه الأعمال بتحريض من اليهود ، وان اليهود قتلوا من المسيحيين أكثر مما قتلوا من الفرس ، اذا فقد كان طبيعيا عندما استرد هرقل ايليسا سنة ٦٢٩ م من الفرس ان ينتقم من اليهود فراح يقتلهم بالمئات ... » •

احمد رمضان احمد : ملاحقه التي الحقها بكتاب « اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى » ص ١٩٣ •

وفي سنتي ٧٩٦ و ٨٤٢ نهبت عناصر آسيوية أخرى هذا الدير أيضا ، ثم تكررت اعتداءات صغيرة أخرى ، ثم حدثت مذابح مهولة سنتي ١٨٣٢ و ١٨٤٢ ، حيث هاجمت القبائل الهمجية القادمة من شرق نهر الأردن الدير وذبحت كل الرهبان (١) • والآن فان كل مقدس (حاج) يرغب في دخول الدير عليه أن يقدم خطابا للقس الذى عين شخصا عند شباك البرج كحارس ، ويقوم الحارس بدوره ـ مستخدما أدوات خاصة ـ بارسال الخطاب (الطلب) لمبنى الدير الرئيسي • وتعود الموافقة بالدخول بالطريقة نفسها (من الدير للحارس في شباك البرج ، ومنه الى مقدم الطلب) ومن ثم يفتح الباب • وبعد الغروب لا يسمح لأحد بالدخول حتى لو كان معه خطاب ، كما لا يسمح لأية امرأة بالدخول قبل الغروب أو بعده بأن تطأ هذه المستوطنة الدينية الصغيرة ، وذلك وفقا للطقوس المتشددة للأديرة اليونانية •

ومررنا خلال البوابة الواقعة أدنى البرج وصعدنا عدة درجات لنصل للباب الثاني ، ومن ثم وصلنا لشرفة صغيرة مرصوفة بألواح حجرية بعد أن صعدنا درجات (سلالم) أكثر من السلالم التي صعدناها آنفا ، والطريق ينشعب هنا ، ويمكن للمرء أن يلقى النظرة الأولى على المناطق الداخلية لهذا المبنى المهم • انه مجموعة سلالم (درجات) وبسطات وشرفات وغرف معيشة ، وكلها من الأحجار ، وثمة سقائف خشبية قديمة وممرات سقوفها على عوارض خشبية ، ومصليات chapels وكهوف ومغارات تمتد على طول الجرف من البرج في القمة الى بطن المسيل تقريبا • والجزء الأدنى لا يربطه بالدير الا سلم • وكان المدخل الى الأدنى قد تم تحصينه ـ بطبيعة الحال ـ ضد الذين يرغبون اقتحام الدير قادمين من الوادى ، باستخدام أبواب قوية ، واستخدام ممرات كثيرة معقدة للتضليل (متاهة) • ووصف مبنى

الدير وغرفه وملحقاته مسألة تحتاج لجهد ، وإن كان من خصائص هذا الدير أن المرء يرى في كل مكان سلالم (درجات) وكثيرا من القذارة وقليلا من الضوء ، وأحجارا جرداء .

وقد استقبلنا أسقف بيت لحم اليوناني عند المنبسط (البسطة) الأولى ، وكان يحيط به عدد كبير من الرهبان البائسين غاية البؤس ، وفي وسط المنبسط يوجد مبنى صغير له قبة يوجد به ضريح القديس سابا St. Saba. وهو قبر يحظى بكثير من الزخارف الثرية ، وبالقرب القريب منه توجد كنيسة القديس نيكولا St. Nicholas الصغيرة (وهي على نحو أو آخر مجرد تجويف صغير في الصخرة) ، وفيها تم حفظ جماجم الشهداء الذين ذبحهم خرزويه Chosroes أما الكنيسة الرئيسية للدير فهي عبارة عن باسيليقا يونانية خالصة وتضم كثيرا من الصور السوداء — على خلفية ذهبية — للقديسين ، وكل المواد الفنية الفضية المطلية بالذهب والفضية الخالصة التي يجدها المرء في أماكن العبادة الأرثوذكسية اليونانية . ورتل الأسقف اليوناني صلاة شكر عند حضورنا للمذبح أعقبها أغان كورالية أداها الرهبان ، وقد ترك هذا فينا تأثيرا طيبا جدا خاصة ونحن بين هذه الجدران العتيقة .

وتفقدنا مقبرة القديس كريسورهوس Chryssorrhoas الدمشقي ، وهو أحد آباء الكنيسة اليونانية الأوائل ، وكان علينا بطبيعة الحال أن نقبل كثيرا من المواضع والأحجار المقدسة ، كما كان علينا أن نستنشق كثيرا من البخور وعطر الورد . وبعد ذلك طفنا بأرجاء الدير . ويعيش خمسة وستون راهبا في صوامع المبنى الرئيسي للدير — وهي — أي الصوامع — على نحو أو آخر تجويفات في الصخر بنيت فيها سقائف Sheds خشبية . وعلى المنبسطات وفي الشرفات

وفى أى مكان متاح زرع هؤلاء الاخـوة الأتقيـاء حدائق صغيرة ، مستخدمين تربة نقلت الى هنا بجهد جهيـد ، وفى احدى هذه الحدائق الصغيرة توجد نخلة قديمة زرعها القديس Saba بنفسه ومازالت حتى يومنا هذا تثمر بلحا بدون نوى ·

ان زيارة كل غرف الدير تعتبر عمـلا شـاقا مرهقا ، فمرة نصعد سلالم ومرة نهبط ، وغالبا ما كنا نسير منحنين انحناء مضاعفا بين الممرات المنخفضة ، وبالاضافة لهذا فان رائحة كريهة تسود المكان كله · وفى مبنى صـغير منفصـل كانت توجد غرفة بائسة لاستقبال الغرباء ، وفيها أكرمنـا راهب بتقديم شراب وردى اللون كريه الطعم ·

ومن هذه الغرفة ذهبنا مستخدمين سلما خارج الباب الى مدخل كهف القديس سابا Saba ، وكان علينا أن نمر خلال عدة غرف مظلمة · وفقا للمرويات ، فان القديس وأسـده أو سبعه (الذى استطاع ــ بواسطة الدعاء والصـلاة ــ أن يستأنسه) كانا يعيشان معا فى مغارتين بسعادة · وكان ثمة قش قد وضع حديثا فى المغارتين لأن الرهبان المتحمسين كانوا يقيمون من وقت لآخر فى هذه البقعة الكئيبة تأسيا بالقديس ، ورأينا بالقرب من المغارتين كهفا آخر محفورا فى الصـخر اختاره راهب عجوز يرتدى أثمالا بالية ، ووجهـه شـاحب مغضن لفرط تعبده (النص: religious excitement) ــ ليكون مقرا له ، ويصل هذا الراهب لمستقره بتسلق درجات عمودية وعبور لوح خشبى ضيق مثبت الى الصخرة · وهو يعبر هذا المسلك الخطر يوميا ، وقد رأيناه يعود من الكنيسة الى هذا الكهف بهذه الطريقة الخطرة ·

وقد القينا نظرة طيبـة عـلى المسـيل من فوق أحـد المنبسطات داخل الدير ، وكانت الجروف المقابلة على بعـد

حوالى مائة خطوة وخمسين خطوة ، وكانت بها كهوف ومغارات أيضا لا يسكنها الآن الا حيوانات ابن آوى والصقور والحمام ، أما فيما مضى فقد كان يسكنها النساك .

والطائر الذى لم اره فى اى مكان آخر فى فلسطين موجود بأعداد كبيرة على الصخور القريبة من الدير . انه طائر الزرزور الجبلى ، فكل الابراج والمنبسطات والاسقف والصخور مغطاة ـ بالمعنى الحرفى لكلمة مغطاة ـ بهذه الطيور الذكية ذوات اللون الأزرق المختلط بسواد ، ذوات الأجنحة البنية المائلة للحمرة ، وصدى تغريدها يتردد فى كل الأركان . وقد استأنسها أحد النساك لنا ، فإنه عندما يصدر صفيرا ويستدعيها فى ساعة محددة كل نهار ، فانها ترفرف بأجنحتها هابطة اليه لتستقر عند قدميه أو حتى فوق رأسه وعلى كتفيه وتأخذ قدرا ضئيلا من الخبز من يديه (*) ، وحتى الحيوانات المتوحشة يغريها هذا المكان ، ففى كل مساء عند حلول ساعة الصلاة تظهر حيوانات ابن آوى فى المسيل وتنتظر حتى يلقى النساك لها قطعا من الخبز .

من كل هذا يمكننا القول ان المسيحية الشرقية قد بقيت هنا ساكنة (لم تتغير) عند مرحلة نساك القرون الأولى . فالمسافر مضطر للعودة بنفسه الى أيام نساك جبل أثوز Athos والأماكن المقدسة الأخرى فى فجر المسيحية ، ففى الشرق

(*) لا يخفى على القارىء المثقف من أى دين أن هذا يتم بالتدريب واستخدام أساليب علمية وليس له علاقة بالمعجزة بمعناها الدينى ، وقد كنت فى الستينات اشهد عم عبد الغنى (حارى) كان مشهورا فى شوارع بنها وأزقتها ـ يسير وقد حطت على كتفيه حمامتان ، كان طارتا عادتا وحطتا فوق كتفيه ، ولما طالت صحبتى بالرجل أخبرنى أنه حصل على الحمامتين وهما صغيرتان جدا وخاط أرجلهما فى كتف معطفه ، وراح يطعمهما وهما على هذه الحال فترة من الزمن . فلما كبرتا ألفتا كتفيه كعش لهما ولم تعودا تفارقانه الا لماما ، أو على الأقل انسمتا اليه الى جوار عشهما الذى صار لهما الى جوار سريره ـ (المترجم) .

البعيد لازال الأتقياء يطوبون (يطوب ــ بضم الياء وتشديد الواو وفتحها ــ هو جعل شخص ما قديسا بعد موته) (*) • أولئك الأتقياء الذين قضوا حياتهم فى صلاة (عبادة) غير منقطعة فى الكهوف والصوامع Caves & dens .

هكذا كانت الكنيسة المسيحية الأولى ، انها شرقية ، وقد احتفظ دير Mar-Saba فى أيامنا هذه بالطابع القديم نفسه على مستوى النساك المتدينين فى القرنين الثالث والرابع للميلاد • انه ليس ديرا وفقا للمفاهيم الأوروبيــة ، وانما مستوطنة للنســاك ، وهم مجمــوعة من المنعزلين يعيشــون مستقلين ولكنهم متجمعون فى بقعة ضيقة وسط اخطار تحيط بهم ــ لا مكان هنا للتعليم أو الرفاهيــة فى هــذا الجبــل ، لا شيء سوى الصلوات ، عبــادة يومية مســتمرة تتم تأديتهــا بالطريقة نفسها كل يوم ، ومحق كامل للذات واماتة كاملة للجسد • ان طفل القرن التاسع عشر ذا الممارسة الأوروبيــة الخالصة لا يستطيع أن يتخيل مثل هذه الحياة ، انه الشرق وحده هو القادر على انتاج التعصب fanaticism (أو التطرف) الذى لازال ضاربا أطنابه فيــه • وماذا عن الحــاخامات rabbis الذين مازالوا يبكون عند حائط المبكى ؟ وماذا عن الدراويش الذين يقضــون كل حيــاتهم فى التطــواف والدوران وبتر أنفسهم (ضرب أنفسهم) ؟ • فى أى شيء يختلف كل هؤلاء ؟ ان الجوهر واحد ، والاختلاف فى الشكل فقط •

ونســاك ديــر Mar-Saba لا يأكلــون الا الخبز والخضروات • وجرس الدير ذو الرنين العالى يدعو النســاك كل يوم للكنيسة لأداء صلاة مشتركة ، وليلا ــ فى الساعة

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

الثانية عشرة يقيمون قداسا ، ويظل اليوناني العجوز يرتل دون توقف حتى يطلع الصبح • ووجدت بعض الروس بين هؤلاء الاخوة وكذلك بعض الترانسلفانيين Transylvanians والسلافونيين Sclavonian والبلغاريين ، لكن معظمهم يونانيون من أوروبا وآسيا الصغرى •

لقد جذبتني حكاية حيوانات ابن آوى التي تظهر كل مساء ، فاستأذنت الرهبان وهبطت السلالم وعبرت الممرات حتى وصلت المسيل وربضت بجانب بعض الأحجار بالقرب من خزان قديم • كانت البقعة قاسية موحشة ــ الصخرة الجرداء في المقدمة ، ومساكن الرهبان الحجرية في الخلف ، وفوق رأسي شقة ضيقة من سماء زرقاء ، وكلما اقترب المساء حلقت طيور الزرزور الجبلية والنسور والحمائم عائدة الى أوكارها ، ولا يسمع تغريد طائر الا بين الحين والحين • يمكن للمرء أن يتخيل نفسه وكأنه يعيش أيام القديس St. Saba.

لقد بدأت الظلمة تهبط ، وارتفع صوت أجراس الدير عاليا داعيا للصلاة ، وما كادت آخر رنة من رنات الجرس تتلاشى حتى ألقيت قطعة خبز بجواري ، وبعد لحظة ظهر واحد من حيوانات ابن آوى لا يبعد عني بأكثر من عشرين خطوة ، فالقمته طلقة فتمدد • وكنت سعيدا أن أسرع بفريستي خارجا من هذا المكان الضيق المتعب الواقع على مستوى البحر المتوسط (يقصد غير المرتفع) •

الهواء قارس • لقد أحسست ببرودته كما لم أحس من قبل • لقد بدا وكأنه على وشك أن يخنقني ، وشمل جسدي كله وكأنه حمل ثقيل • وفي الأيام التالية كان علينا أن نهبط أكثر ، ليكون مستوانا أدنى (من البحر) ومن هنا كان الهواء أكثر سكونا ، ويكاد يخنق الأنفاس ويسبب البرداء (الملاريا) •

وتسلقت الطريق كله صاعدا لأعلى عبر الدير ، واستأذنت من الرهبان الاتقياء وأسرعنا خارجين من البرج عند القمة ، ولم نصل لمعسكرنا الا والظلام دامس ، فتناولنا عشاءنا ، وأعددنا خطتنا لليوم التالى ، وفى العاشرة عم السكون فى هذا الوادى المنعزل .

وعند شروق الشمس تجمعنا لتناول الافطار ، وبينما كنا متحلقين حول المائدة ، هبط واحد من نسور الجيف بجرأة وتهور فى معسكرنا ، لالتهام بعض فضلات المطبخ من بين الخيام فأحضر الدوق الكبير بندقيته وأطلق النار على الطائر الجسور .

لقد وافقنا أن نتفرق أثناء ساعات الصباح فى اتجاهات مختلفة ، فصعدت – ومعى الدوق الكبير – واحدا من أكثر التلال ارتفاعا كان يطوق الوادى – وذلك لنضع طعمس (شركا) فوق القمة ، بينما ذهب الرفاق الآخرون لصيد الحمام فى مسيل Mar-Saba .

لقد تسلقنا هذا التل لكن بعد فترة طويلة من العناء ، فقد كان المنحدر حادا وزلقا ، وكان علينا ان نزحف فوق صخور حمراء ملس ، وبدأنا بالفعل نشعر بالحرارة . وعندما وصلنا للقمة وجدنا مكمنا ممتازا ، كان مساعد الصيد التابع لى قد أقامه بعد الظهر فى اليوم السابق ، وجلسنا نراقب طوال ساعتين وآذتنا الحشرات التى لم نكن نسعى لاطلاق النار عليها . أما نسور الجيف فلم تظهر ، وبدأت تظهر مرة أخرى أسراب الطيور الجارحة ، متجهة للقدس ولم يفلح أى طعم أو اغراء فى تغيير مسارها .

وزحفنا للأسفل فلم نحصل على شىء فاتخذنا أقصر الطرق للمعسكر الذى كان قد تم تجميع خيامه بالفعل وأصبح قابلا للنقل فى غالبه ، اذ لم يبق الا المطبخ فتناولنا فيه وجبة افطار خفيفة تعيننا على تحمل بقية الرحلة .

كان الرفاق قد أطلقوا النار على عدد من الحمام والنسور وبعض الطيور الأخرى الصغيرة في المسيل ٠

وكان علينا أن نستأذن من الكونت كابوجا Cabaga الذى كنا مدينين له بأفضال كثيرة ، فقد كان عليه أن يعود لتنور Tantur هذا اليوم ، لكنه أعارنى طوال فترة الرحلة الباقية خادمه فردناند وحصانه العربى الجميل الذى كان قد اشتراه من قبيلة بدوية ، والذى كنت أمتطيه يوميا منذ وصولنا للقدس ٠ لقد كنت ممتنا تماما للكونت بسبب اهتمامه وبسبب حصانه الجميل الذى يتشبث بالجبال وينطلق فى السهول ويتحمل مشاق النهار وبرد الليل ٠ وحالما استقر كل منا على ظهر حصانه انطلقنا للأمام يتقدمنا البدو ٠

كانت المنطقة أمامنا ــ فى البداية ــ لها الطبيعة نفسها التى للمنطقة حول معسكرنا ، لكن الوديان سرعان ما صارت أضيق والتلال سرعان ما أصبحت أكثر ارتفاعا ، وحل محل العشب أرض جرداء صفراء ، وألواح حجرية ضخمة ملساء ٠ وفى حقل صغير تحيطه صخور وسط البرية كان هناك طائران من طيور اللقلق ، ربما كانا مهاجرين ، وأطلقت النار على واحد منهما بينما كان يهم بالطيران ٠

كان الطريق شاقا متعبا تماما للخيول وكان عليها أن تخطو بحذر تام ، فقد كان عرضة للسقوط فى الهاوية اذا حدث أى خطأ ، فقد مررنا بما لا يحصى من القمم والنقاط العلوية المستدقة والجروف وعبرنا وديانا ومسيلات ، وكنا فى حالة صعود وهبوط دائمين ٠ لقد كانت الأرض متضرسة ليس بها أى أثر لجهد انسانى يخفف وطأتها ٠ وبعد مسير طويل غيرت الأرض من طبيعتها فأصبحت المنحدرات أخف وطأة ، واختفت الصخور وبدت الحشائش الطوال والزهور اليانعة وكاننا فى سهوب حقيقية فى فصل الربيع ٠

وحجبت الجبال السمراء المصفرة التى تسلقناها آنفا باتجاهها من الجنوب للشمال ـ حجبت عنا كل رؤية نحو الغرب • لقد وصلنا لهضبة تمطرها الزهور وعبرتها أفراسنا عدوا • كانت الأرض يسرا فوثبت الخيول فرحا لخلاصها من الصخور الملساء والممرات شديدة الانحدار •

كانت السهوب رائعة غير كئيبة فى رتابتها كالصحراء الأكبر بعدا والتى تتسم بتأثيرها القوى • وأعطت الزهور المنطقة ميزة فى الربيع • ومرة أخرى ترتفع التلال أمامنا متصلة بما يسمى جبال يهوذا Judaea • انها تشرد بعيدا من الاتجاه الذى ترى منه بقيتها ، وتتقدم فى الهضبة بهيئتها الحادة ولونها الخاص وطبيعتها المميزة •

وكل هذه القمم المخروطية تتكون من صخور حمراء وطفل أصفر وأحجار خضراء وأخرى بنية وليس عليها من نبات البتة • وكان علينا أن نمر خلال مسيل عميق بينها وبين جبال فاصلة أخرى • لم نر سوى صخور ملساء وجروف أدنى منا • فحتى البدو المرافقون لنا ترجلوا وفى أحد المواضع لم نستطع السيطرة حتى على خطوات الخيول ، لكن هذه الحيوانات النشطة كانت تتبع قادتها بما يلائمها • لقد تعلمنا فى أوقات كثيرة أن نقدر ما يتحلى به الحصان العربى من ذكاء فائق • لقد سقط حصان التحميل فى هوة عميقة فى أحد المواضع السيئة ، ولحسن الحظ فان السقطة كانت على ظهره ، حيث كانت أمتعتنا تحت ظهره مباشرة أثناء السقطة ، ومن المدهش أن أقول انه لم يصب الا بخدوش قليلة •

كان الصعود من المسيل أفضل ، من الهبوط اليه ، وأصبح علينا أن نعبر السهل المعشوشب، فعبرناه حتى وصلنا الى النبى موسى Nebi-Musa بعد أن سرنا على طول القاعدة الشمالية للتل • وموضع النبى موسى موضع يزوره المسلمون

لقداسته (*) اذ يقولون ان موسى (عليه السلام) دفن هنا ·
وثمة مسجد صغير آيل للسقوط ، ومنزل بائس لينزل به
الزوار pilgrims الذين يزورون المكان بالآلاف كل عام ·
ولا يجوز لمسيحي أن يدخل هذه المنطقة أثناء الأيام المقدسة
(المواسم والأعياد) عند النبي (**) والا أصبحت حياته
معرضة للخطر ·

وعندما وصلنا هناك (للنبي موسى) لم نجد أحدا هناك
خلا أسرة تركية عهد اليها بالعناية بالقبر ·

واقمنا معسكرنا بالقرب من المسجد · وكانت المنطقة
رائعة جذابة فهي عبارة عن هضبة صغيرة يغطيها العشب
والشجيرات الصغيرة ، تحدها من الجنوب جبال حمراء ، ومن
الغرب جبال خضراء داكنة ، وهذه الهضبة تتخذ اتجاها
موازيا لوادي الأردن · لقد استمتعنا بمنظر رائع هنا لهذا
النهر المقدس ·

وكانت طيور الحجل تغرد في كل الجوانب ، وقسمنا
أنفسنا لنمارس صيد هذه الطيور المتوفرة ، لكن ــ لسوء
الحظ ــ كانت الشمس قد غربت بالفعل وبدا الشفق
الأحمر ، فلاحظت ببعض طيور السمان بين الحشائش الطويلة ،
وبعض أعداد كبيرة من الطيور الصغيرة كانت تطير من
شجيرة الى أخرى ، الا أنني لم أكن بمستطيع اطلاق بندقيتي ،
لأننا كنا بصدد العودة جميعا الى معسكرنا لنتناول عشاءنا ،
ولننام بأمان الى جوار قبر النبي موسى ذلك الحكيم العظيم ·

(*) النص : يحج المسلمون اليه
This is a considrable place of pilgrimage for Mohammdeans.
والمعروف ان فريضة الحج عند المسلمين مرتبطة بالكعبة المشرفة وبعض المشاعر الاخرى بمكة المكرمة ــ (المترجم) ·

(**) لم يحدد النص النبي المقصود ــ (المترجم) ·

وعند شروق الشمس في اليوم التالي بدأنا جميعا مرة أخرى • فقد سبقتنا القافلة الكبيرة سالكة أقصر الطرق الى عين السلطان مارة باريحا Jericho ، أما نحن فقد قمنا برحلة ممتعة للبحر الميت بارشاد البدو المرافقين لنا وحراسنا من جنود الحراسة ، لقد ركبنا من النبي موسى متجهين شرقا عبر منحدرات صخرية شديدة ، سالكين ممرات ضيقة وصدوعا عميقة ، فوق أرض اردوازية (لونها رمادى ضارب للون الأرجوانى) خالية من النباتات تماما • وكانت بعض النسور تقف فوق الحيود الحادة والمساقط المتوازية التى تفصل بينها ممرات ضيقة ، وفي غضون ساعة وصلنا لسفح الجبل فوجدنا أنفسنا مرة أخرى بين شجيرات كثيفة وعلى أرض رملية ملائمة تماما للخيل • وثمة بقسع غاصة بالشجيرات تتخللها مسطحات معشوشبة ، وقطعت خيولنا هذه المنطقة عدوا وهبطنا مسيلا قديما لكنه الآن جاف ، وواصلنا طريقنا بين حشائش طوال وأشجار باسقة حتى وصلنا للساحل الرملي المنبسط للبحر الميت •

كل خطوة كانت تخطوها الخيل على هذا الساحل المنبسط للبحر الميت كانت تسمع لها طقطقة ــ نتيجة تكسر القشرة الأرضية ــ كطقطقة قشرة الجليد ، فالرمال هنا مغطاة تماما بالملح الصخرى ، ويسمى العرب البحر الميت باسم بحر لوط (أو بحيرة لوط) منذ نزلت سورة لوط فى القرآن (الكريم) ، وهو بحيرة جبلية رائعة ، وهو عميق الزرقة كبير ومحدد شكله وتحفه من الشرق تلال داكنة خضرتها ، كنا نراها أثناء أيام رحلتنا الأخيرة قبل الوصول الى هنا ، وتحفه من الغرب جبال شامخة حقا ذوات ألوان رمادية فاتحة •

أما ماء البحر الميت فغير نظيف وهو مثقل ــ بشدة ــ بالمعادن الذائبة ، مما يجعل أى شكل من أشكال الحياة مستحيلا فيه ، ومن هنا فهو بحر ميت فعلا على الحقيقة ، وحاول بعض

الرفاق الغطس فيه فلم يتمكنوا فالغطس فيه غير ممكن ؛ ومن ناحية أخرى ، فان كثرة الأملاح الذائبة في مياهه تترك تأثيرها غير المريح على الجلد .

والهواء عند البحر الميت بارد كالرصاص ويشبه الهواء في المناجم العميقة ويسبب انهاكا شديدا ، ويرجع ذلك لانخفاض المنطقة فمياه البحر الميت عند مستوى ٣٩٤ مترا تحت مستوى مياه البحر المتوسط (*) .

وقد ركبنا خيولنا لمسافة قصيرة بالقرب من الساحل ، ثم انعطفنا متخذين اتجاها شماليا عبر مسطحات من رمل وطفل ، فرأينا عن أيامننا سهلا يمتد الى مروج الأردن كثيفة الزروع ، أما عن شمائلنا ، والى الأدنى ، فثمة منخفضات مستنقعية مليئة بالغاب والورود البرية بكثافة شديدة .

وانعطف خنزير برى ضخم أمام الخيالة تماما بالقرب من احدى البقع المستنقعية آنفة الذكر ، وفي اللحظة التى رأيت فيها هذا المخلوق الضخم قفزت من فوق حصانى وتتبعت أثره ، فلما درت حول مجمع النباتات الكثيفة التى لا يزيد محيطها عن مئات قليلة من الخطوات ، وجدت ما يدل على أن هذا الخنزير البرى لم يتوغل فيها بعد ، فعينت مواقع الرجال بسرعة وتركت جنود الحراسة يواصلون سيرهم ، وسرعان ما اتضح لنا عدم امكانية اخراجه من بين الحشائش والغاب ونبات العليق حتى لو كانت قصيرة ، فقد ذهبت كل جهودنا هباء ، وحاولنا اخراجه باشعال النار في الدغل لكن الحشائش فقط هى التى احترقت مرسلة أعمدة دخان ضخمة في الهواء ، أما الشجيرات والنباتات الواقعة في الداخل الى الأعمق والتى تحظى بقدر أكبر من ماء النبع

(*) نص القرآن الكريم على ذلك — وهذا من الاعجاز التاريخي والجغرافي المدهش حقا . فوصف هذه المنطقة بأنها « أدنى الأرض » اى أكثرها انخفاضا — (المترجم) .

فلم تصب كثيرا بفعل النيران ، وبالتالي فقد كانت ملجأ آمنا لهذا الخنزير • وكان فشلنا مما يبعث على المرارة ، لأن كل الطرائد من السهوب والجبال القاحلة تتخذ لها مأوى في هذه التجمعات النباتية الكثيفة التي لا يقربها بشر ، فالآثار التي وجدناها على الطفل الرطب تنبيء عن ثراء في الحياة الحيوانية في هذه البقعة • ففي رقعة ضيقة رأيت آثار خنازير برية مختلفة وآثار ضباع وذئاب وحيوانات ابن آوى ، وآثار نمور آسيوية Panther وآثار حيوانات الوشق (بفتح الواو والشين) بالاضافة لآثار حيوانات اخرى مفترسة لم أستطع تبينها ، وانطلقت من المياه أوزتان بريتان وكثير من حيوانات الشاطيء الصغيرة ، وانتشر سرب بجع وعقاب نسارى Osprey مخترقا سحب الدخان •

أما البجع فقد وصل الى هنا فجأة من البحر الميت وتزاحم حول النار لدقائق قليلة فحييناه باطلاق بنادقنا ، وكان ذلك غير مجد فلم نصب منه شيئا ، وسرعان ما واصل تحليقه فوق الوادى مبتعدا ، متخذا اتجاها شماليا • ولأن الوقت لم يكن كافيا ، فقد غادرت هذه البقعة وعدوت بفرسي دون توقف فوق أرض ملائمة تماما : مناطق رملية ممتدة ومروج معشوشبة بين تجمعات نباتية مستنقعية كثيفة ومجموعات أشجار قصار بحيث يمكنني القول انها غاية صغيرة ، وعبرت بعض المجارى المائية الجبلية ذوات الشواطيء المهشمة والصخور الضخمة والنباتات البرية التي تنمو بوفرة ، مسرعين نحو الأردن حتى وصلنا لقرية أريحا Jericho .

وقرية أريحا Jericho تتكون هذه الأيام من بعض الأكواخ البائسة التي يسكنها أناس بؤساء يعانون من سوء المناخ وسمعتهم سيئة فهم معروفون بميلهم للسرقة ، ويحيط بالقرية سياج من شجيرات شائكة ، وثمة برج يرتفع كآخر بقايا أيام مملكة الفرنجة Frankish Kingdom والى جواره

يقع ــ كما يقال ــ منزل زاكوس Zacchaeus وثمة شجرة جميز عتيقة يقولون ان الرجل الصالح شاهد عندها المسيح (عليه السلام) Redeemer • ان هذا المكان بائس وخرب، بينما كان مدينة مزدهرة في الأزمنة القديمة وحتى الحروب الصليبية •

وتجاوزنا ــ ونحن نركب الخيول ــ الأكواخ الخارجية للقرية ووصلنا الى السفوح الغربية للتلال ، بعد أن مررنا بحقول شعير برى وأشجار مزهرة • لقد كان هدفنا العاجل الذى نبغى الوصول اليه هو عين السلطان ، وكانت تقع الى الأمام منا ، وعند هذه النقطة يمكن القول ان رحلتنا الحقيقية فى وادى الأردن قد بدأت •

تعليقات المترجم
على الفصل الثامن

وثيقة العهد العمرى

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، (صحيحها) وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لايسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينقص منها ، ولا من خيرها ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء أحد من اليهود ، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبانهم ، فانهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم . من كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع الى أهله لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

كتب وحضر سنة ١٥ هـ

شهد على ذلك : خالد بن الوليد ، عمرو بن العاص ، عبد الرحمن بن عوف ، معاوية بن أبى سفيان .

وتسلم البطريك سفرونيوس Sophronius العهدة العمرية .

* * *

ومنذ هذه الوثيقة لم يهدم المسلمون — بالفعل — اية كنيسة أو أثر مقدس مسيحى او يهودى بشهادة كل المؤرخين · حقيقة لقد حدث بين الحين والحين — فى عصور الظلام — بعض مظاهر التعصب ، لكن الآثار المقدسة المسيحية الباقية حتى الآن خير شـــاهد على التزام المسلمين فى مختلف العصور بالعهد العمرى ·

أما ما حاق بالقدس من تغيير وتبديل أو تخريب ودمار، فكان على يد الفرس الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد كما طالع القارىء فى ثنايا هذا الفصـــل ، ثم على يد الصليبيين اثنـــاء فترة الحروب الصليبية يقول وليم الصورى :

— ان منظر المنتصرين (الصليبيين) وهم ملطخون بالدماء، كان يثير الرعب حتى فى قلوب الصليبيين أنفســـهم ، أما ما أحدثه الصليبيون بالمسجد الأقصى ، فقد أنشأ جود فرى الذى اتخذ من حرم القدس قاعدة حربية له ولقواته ··· واتخذوا من أقبيته اسطبلات لخيولهم ، أما ما أحدثه اليهود بعد ذلك فى المقدسات الاسلامية فمعروف مشهور ،وأما ما سيفعلونه بالمقدسات التى تخص المسيحيين وحدهم ، فأمر تمليه عليهم عقيدتهم ، ولا يمنعهم — الآن — من تنفيذه الا القوى المسيحية الكبرى ، والمصـــالح الاستراتيجية،إما صلب المعتقد اليهودى الذى يقول فى المسيح عليه السلام وأمه بهتانا عظيما ، فيحض على كل ما هو مشين ·

الفصـل التاسـع

عين السلطان ـ العوجه El-Audje ـ عبـد القادر ـ بيسان ـ تل طابـور ـ النـاصرة ـ رحلة الى حيفا ـ الشيخ على ـ النظام الأبوى ـ خنزير برى يهاجم احمد ـ كتاب التراتيل البروتستنطى فى مغارة ـ السباحة فى نهر الأردن ـ بحيرة طبرية ـ العقارب ـ تلدغنا ـ اصابتى بالحمى ـ تل طابور ـ جبل الكرمل (مار الياس) ـ جغرافية المنطقة من العهـد القـديم ـ ذكريات صـليبية ـ وغادرنا الشرق ـ رسوم بوسنجر ـ تعليقات المترجم .

عند حدود الأرض الخضراء تتخلى الشـجيرات الكثيفة الممتدة فى خط طويل واضح ، عن مكانها لتحل محلها جبال حجرية وعيون فوارة ، تفيض مياهها فى أحواض حجـرية قديمة . وحيثما تنبثق الينابيع من الأرض أو تسيل غدرانا من الجبال ، تعم البركة فتخضر الأشجار والشجيرات وتونع الحقول . وتمتد هذه القطاعات الخضراء المتميزة بمروجها العريضة مع المجارى المائية من سفوح الجبال الجرداء حتى نهر الأردن . وعـلى طول هـذا الخط الأخضر المزهر ترى خطوطا (قطاعات) خضراء فرعية تخرج من الخط الأخضر الرئيسى لتلتحم بالخط (القطاع) الأخضر لمجرى مائى آخر . وسهل الأردن يشقه بالطول نهر الأردن المقـدس بشـاطئيه الخضراوين ، وهذا السهل نفسه تقطعه بالعرض شـواطىء المجارى المائية المتعاقبة التى تحفها السهوب والتربة الخصبة ، وأجمل واحة بين كل تلك الواحات هى تلك التى تبدأ من

عين السلطان وتهبط كشريط أخضر عريض حول مجـراها الى نهر الأردن • وقد أقيم معسكرنا بجانب نبع عند سـفح الجبال وحافة الخضرة • ومن الآن فصاعدا تصبح رحلتنـا من نبع الى نبع فلابد للقافلة أن تراعي قربها من هذه الينابيع عند عبورها في هذه المناطق •

وخلف معسـكرنا يشـمخ تل صخرى أجـرد مرتفع ، ناتيء من سلسلة الجبال المحـددة للسـهل ، ويفصله عنهـا مسيل • ويقطن نساك يونانيون في الكهوف ، في جوانب هذا الـوادى المنعزل وهـذه المسـتوطنات ــ التى كونهـا زهاد ونساك ــ ظلت موجودة منـذ بداية الحقبة المسـيحية حتى أيامنا هذه •

وكان في انتظارنا منظر رائع عندما صعدنا الى النبع فقد رأينا معسكر البدو الأحرار (مضارب خيـامهم) عن شمال النهر • خيول مدهشة رشيقة بيضاء ترعى الحشـائش الخصبة وفرس كستنائية (بنية محمرة) رشيقة تقف الى جانب شجرة وتقضم من فروعها ، لقد كانت فرس قتـال يمتلكها الشيخ علي ذو الشعر الأشيب ، وقد جلس البدو الى جوار نار أوقدوها لطهى طعامهم • كانت أثوابهم بيضاء طويلة ويضعون على رءوسهم العمائم وكانوا مسلحين بالبنادق والخناجر والسيوف المعقوفة وحيدة الحد • وقد غرست في الأرض ، جنبا الى جنب ــ حراب طويلة من أجـود أنـواع الخشب ، وتعد هذه الحراب بمثابة شارة (علامة) للقبائل الكبيرة البدوية •

انتظرني الشـيخ عـلى أمام خيامنـا محاطا بأبنـائه وأتباعه • وكان هذا الملك (*) البـدوى الأشيب بملامحـه الدقيقة النبيلة ولحيتـه البيضـاء المدببـة وقامته الطويلة

(★) King والمقصود شيخ القبيلة ، والتعبير هنا مجازى ــ (المترجم) •

ومدونه العصبى وهيئته المنتصبة ـ يرتدى ثوبا أبيض ناصعا به كثير من الزركشات والزينات • وقد ثبت حول خاصرته سيفا تركيا معقوفا وحيد الحد ، وكان يلبس حذاء أصفر ويضع على رأسه عمامة كبيرة ، ومد يده المحلاة بالاحجار الكريمة ـ بتحية ودودة ، ووقف حوله ـ باحترام ـ أبناؤه وشيوخ القبائل ، وتنم كل حركة منهم على الطاعة المطلقة له والحب والثقة فى حكمة زعيمهم وحنكته •

لقد بدا متقمصا شخصية من تلك الشخصيات ، التى وردت فى حكايات الكتاب المقدس ، التى استوعبناها منذ مرحلة الطفولة الباكرة والتى بدأت تتزاحم فى رأسى منذ دخلت الارض المقدسة عن ممثلى سلالة الأنبياء وحكام العصور الأبوية ، أو الرجال الحكماء الذين أتوا بعد ذلك ليقدموا أعطياتهم للطفل المسيح وهو فى المهد ـ لابد أنهم كانوا يبدون كالشيخ على وهو واقف أمامنا الآن بشحمه ولحمه • انه مثلهم ، فكأننى أراهم فى شخصه قدموا من عمق آلاف السنين • انه مثلهم دون اختلاف •

ومرة أخرى فقد تأثرت بثبات الحياة (عدم حدوث تغيير فى شكلها وأساليبها) فى هذه المناطق ، فالمدن لم تلغ الخيام وأطفال الصحراء هؤلاء لم يأخذوا بأساليب الحضارة بدعوى التقدم ، فلازالوا يتحركون فوق السهوب وبين الجبال بحرية لا يسيطر عليهم أحد • ولازال زعماؤهم يفخرون بثروتهم من القطعان ، وقدرتهم العسكرية ممثلة فى آلاف من المقاتلين الشجعان على خيول سريعة • ولا يحد المنطقة التى يتحركون فيها حدود فهم يضربون خيامهم فى أية بقعة يتوفر فيها العشب •

لقد كنت سعيدا أن أرى هذا الملك الجليل (بطريقته الخاصة) وكنت شاكرا لأننى فهمت أثناء هذا اللقاء ان السلطات التركية قد وضعتنا تحت حمايته ، وبذلك هيأت

لنا صداقة ضرورية • فهذه الحماية كان لابد منها لرحلة وراء نهر الأردن ، لأن هذا النهر يشكل حداً فيما من هذا النهر حتى بغداد يمد منطقة حرة للقبائل التي لا يحكمها قانون ، فهم لا يعترفون بأى خليفة اذ يحسون انهم اقرب الى مكة (المكرمة) منهم الى مقر آل عثمان ، ولا أحد يجرؤ على أن يشق طريقه بقوة السلاح بين هذه السهوب والصحارى ، حيث لا يمكن أن يوجد الا البدو الحقيقيون • والمنطقة التى يحكمها الأتراك تصل لنهر الأردن ، ولكن الحاميات العسكرية فى فلسطين ضعيفة ولا توجد الا فى المدن الكبيرة ، وكما يقال بالفعل فان كثيرا من البدو الفقراء — ولكنهم شجعان رغم فقرهم — يغزون التلال الحدودية ، كما أن علاقتهم بالحكومة (العثمانية) غير جيدة ، ومن هنا فان منطقة الأردن تتعرض دائما لهجمات القبائل البدوية الكبيرة القادمة من الضفة اليسرى للنهر ، وقد سجل التاريخ — حتى فى هذا القرن التاسع عشر — كثيرا من غاراتهم الهادفة للسلب والنهب •

فسرية الخيالة التى تحرس قافلتنا لا يمكن أن تساعدنا الا مساعدة قليلة ، وحتى هذا يتوقف على أوامر السلطات أو تهديدها لها ، اذا ما سبح هؤلاء البدو النشيطون حاملو الرماح عابرين النهر بالمئات فى ليلة ملائمة وأحاطوا بنا ، لهذا فاننا ممتنون للباشا الذى عهد بنا وبخط سير رحلتنا لهذا الشيخ المسن ووضعنا تحت حمايته •

وقد أحس الملك البدوى — فهو حساس ككل الشرقيين — بهذا الاجراء والمعاملة الكريمة (التى أولته بها السلطات) وأتى بنفسه من مسافة بعيدة (لأنه يقضى معظم وقته بعيداً) فصحب مجموعة من الفرسان الرائعين الى ضفاف الأردن وعبر النهر سباحة وانتظرنا بجوار خيامنا •

وباختصار ، أكد لنا بكلمات تنم عن القسوة والاخلاص أنه يمكننا أن نمر بأمان على طول مجرى الأردن كله ، وأن

كل ما نحتاجه من مساعدة في الصيد سيكون متاحا لنا ، وفي الحقيقة فاننا كنا نجد في كل موضع نتوقف فيه آلفة مع السكان المحليين ، الذين آتاحوا لنا صيدا ممتعا وخدمونا بلا كلل · فعندما يعد الشيخ على آحدا بالأمان فانه يكون ـ في هذه المناطق ـ آكثر آمنا ـ مما لو كان في وسط آوربا ، فكلمة الشيخ على بمثابة قانون بين كل القبائل البدوية التي لا تخضع لقانون · وفيما مضى لم تكن الحال كذلك ، لأن البدو كانوا في حالة اقتتال دائم ، لا يكفون عن حرب بعضهم بعضهم الآخر ، فاذا حدث أن صادق أحد المسافرين قبيلة ، كان عرضة لاعتداء القبائل الأخرى عليه ·

لقد وحد هذا الأب الحكيم الآن معظم القبائل تحت حكمه ، ويطيعه سكان المنطقة البدو طاعة عمياء لا تحدها حدود تقريبا · ان آلافا من الفرسان والمسلحين الشجعان من آبناء الصحراء يتفذون أوامره ، ومن ثم يمكننا القول ان نوعا من الخلافة قد ظهر · واستأذننا الشيخ على في الانصراف بعد حوار قصير · ان الوقار سمة من سمات تصرف هؤلاء البشر ، كما آن لديهم احساسا قويا بالعزة والفخار قلما يلقاه المرء بهذه الدرجة نفسها في أوربا · لقد ركبوا خيولهم النبيلة تحيط بهم مجموعة من حملة الرماح المخلصين وعاد الملك البدوى الى سهوبه التي لا تحدها حدود ·

وكان ينتظرنا عند الخيام آيضا حاكم نابلس وهو رجل تركمانى آصيل ويحظى بالقبول كما آنه متحضر جدا ، وكان راغبا تماما في تحقيق رغباتنا · وكان يرتدى زى باشا لكنه بسط فوق طربوشه غطاء آبيض بسبب الحرارة ·

وتناولنا افطارا سريعا فلم يكن لأى منا رغبة في آن يأكل كثيرا ، فالهواء ثقيل ويبعث على الاختناق خاصة وقد اقتربت الظهيرة ، وقتل فينا العطش الدائم والحاجة الدائمة للماء كل شهية في هذه المنطقة المنخفضة الواقعة تحت مستوى

سطح البحر • وبعد أن استرحنا ساعة قام بعض رفاق السفر ليشغلوا وقتهم بعد الظهر وفي المساء بمطاردة الطرائد •

وكان على سالم ــ قائد جماعة البـدو المسـاعدين في الصيد ــ أن يوجهنا الى بقعة غنية بالطرائد • لقد كان سالم قديرا وتابعا ممتازا سرعان ما ارتبطت به وقدرته كرياضي • لقد ولد على ظهر حصان سواء أكان حصان صيد أم حصـان حرب ، ويمكن اعتباره نموذجا للعربي الحر (البدوى) بكل ما في الكلمة من معنى • لقد كان صغير الحجم لكنه عصبي ويتميز بملامح مفعمة بالطاقة ولحية قصيرة وعيني صقر • وبشرته داكنة اذا قورنت ببشرة أهل هذه المنطقة ، فهـو في لونه أقرب الى لون العرب الأفريقيين ، أما لباسه فيتكون من عمامة صغيرة وثوب أبيض فوقه حزام محكم ، وحذاء أصفر تبدو من فوقه ساقاه النحيلتان ويحمـل سكينا صغيرة في جراب يخرجها منه ويمسـكها بيـده ، وكان رفاقه حـوالى خمسين . وكانوا طوالا ضامرين معظمهم ملتح ، وبشراتهم بنية داكنة مشربة بصفرة ، ويلبسون عباءات رثة ويضعون فوق رءوسهم العمائم وبعضهم يرتدى ملابس بيضاء وبعضهم الآخر ملابسه بنية مخططة بخطوط بيضاء ، وهم مسـلحون ببنادق قديمة ومسدسات عتيقة وسكاكين قصار ، وعصى أو أسواط (كرابيج) للتلويح بها مهددين • لقد كانوا أتباعا مخلصين طيبين يجيدون مطاردة الطرائد • وتبعتنا الكلاب ــ وهي كلاب لا سلالة لها ولا جنس ، لكننا تعلمنا كيف نقدر بعض البدو ذوى الشعور المجعدة والبشرات الداكنة ، بشكل غير عادى ، مما يشير بشكل واضح الى تأثير الدماء الزنجية فيهم •

وغادرنا المعسكر مع هذه المجموعة • لقد كان أمامنـا مسير طويل ، فقد كان الركوب غير ممكن لأن خيولنا كانت في راحة منذ شروق الشمس ، لأننا كنا نود أن تكون قوية وبصحة جيدة فستبذل جهـدا في الأيام التالية • وأرشـدنا

سالم في البداية بين ما يسمى غابات ، وهي أكثر من كونها مروجا خضراء مزهرة حقا وحقول شعير (شوفان) برى ، وتغطيها على نحو أو آخر أدغال وشجيرات قزمية • ان كل شيء في وادى الاردن شائك ، فالحشائش الطويلة تكون لها في الربيع أشواك طويلة تنغرس في جسم الانسان والحيوان ، وكل الأشجار لها أشواك • ويمكن تصور مدى الضرر الذى يحيق بالملابس والجلد ، والمعاناة القاسية الحقيقية التى يتكبدها المسافر المحب للرياضة (الصيد) فى هذه المناطق والتى يتحتم عليه التأقلم معها •

لقد كانت ثمة أنواع كثيرة من الطيور تحدث حركة في الأشجار ، ففى مثل هذه البقعة تتجمع الطيور والحيوانات معا ، ومن هنا يمكن رؤية نماذج جميلة — وبالنسبة لنا جديدة أيضا • لقد كان هديل الحمام الآسيوى الأصيل يسمع في كل مكان ، وثمة قمريتان (بضم القاف وتسكين الميم) واهنتان طارتا عاليا فى الهواء ، وراحت طيور الصرد (الدغناش) (*) وطيور أخرى كثيرة تغرد بين الأدغال الكثيفة ، بينما تظهر طيور السمان الكبيرة — في كل خطوة نخطوها — من الشعير (الشوفان) البرى ، وتوجد الطيور الجارحة أيضا بكثرة : نسور وصقور وحدءات • والحيوانات الأصغر حجما متوفرة أيضا : السحالى النحيلة والضفادع السمينة ، أما الحشرات الكبير منها والصغير فتجعل المكان خطرا •

وبعد فترة غادرنا هذا البستان ووصلنا للسهوب : لقد كانت الحشائش الصفراء تغطى الأرض فذكرتنى ببلادى وبالمستنقعات المجرية ، وثمة مالا يحصى من الجنادب (الجراد الصغير) تسقسق تحت أقدامنا ولم نستطع أن نفهم كيف

(*) تسمى أيضا طيور النهس بضم النون وتشديدها وتسكين الهاء — (المترجم) •

توجد هذه الكائنات في آسيا في أوقات معينة ، بشكل وبائي •

وفجأة توقف سالم وأعلن اننا قد وصلنا لهدفنا ، لقد كان المسيل يهبط من الجبل ، مزهرا عامرا بالزروع ــ في خط مباشر خلال سهل الأردن ــ وكان يمتد أمامنا مباشرة بيننا وبين جرف طفلي • لقد كان تركيب هذا المجرى المائي شائقا وعلى جانبي المسيل بعض المهاوى العريقة التي يبلغ عمق بعضها عدة قامات (فاذومات) ، وهي تمثل عقبات قاسية • وفي الوسط يجري الغدير (الجدول) ، وفي هذا الوقت من السنة كان مجرد غدير صغير ضيق تحفه صخور مختلفة ومواضع مستنقعية سبخة ، وأشجار وشجيرات كثيفة لا يمكن اختراقها وجذوع منهارة وطفل وبقايا مختلفة أنواعها ــ انها بمثابة غابة صغيرة بدائية في مكان ضيق • وفي أكثر المواضع عرضا ، فان المسافة بين جانبي الغدير لا تزيد عن مائتي خطوة •

لقد وجهنا بعض بنادقنا الآن ذات اليمين ، وبعضها الاخر ذات الشمال أو الى الناحية العلوية للجانب الطفلي للغدير، بينما كان على البدو مع كلابهم أن يحتفظوا بالمستوى نفسه وأن يثيروا الطرائد بين الأشجار والصخور في خط مستقيم • وقد بقي سالم الى جواري وكان يوجه عملية المطاردة كلها •

وراح مثيرو الطرائد بين صياح ورشق بالحجارة يقفزون هنا وهناك حول الغدير ، وزغردت الطلقات فقد راح طير في اثر الآخر يحلق خارجا من مكمنه ليسقط مرة أخرى في الدغل • لقد خرجت من أوكارها طيور الحجل الصخرية ذوات السوق الحمراء وطيور السمان وطيور مفردة أخرى مختلف أنواعها • وكان لطيور الشرقرق rollers والسورور bee-eaters أوكار في جوانب الغدير المشققة ، ووجدنا في المواضع المستنقعية آثار خنزير برى وحيوان الشيهم

(بتشديد الشين وفتحها وتسكين الياء ـ حيوان شائك من القوارض ويسمى أيضا النيص ـ بتشديد النون وفتحها) ، ووجدنا أشواك هذا الحيوان الأخير وجحره • ولسوء الحظ فان هـذا الحيوان الخجـول قد زحف تحت الأرض دون أن يحدث صوتا لذا ، فمن النادر أن يتم اصطياده بالنهار •

ورحنا نطلق النار لبعض الوقت ومسحنا مساحة لا بأس بها من جانب الغدين ، وفي هذه الأثناء ، حدث ـ فجأة ـ أن راحت الكلاب تنبح عند أكثر مواضع الدغل كثافة • لقد كنت ابحث عن طائر من طيور الحجـل ، وكنت لهذا السـبب ، ولحسن حظي في بطن الوادى • وفي هذه اللحظة أتت طلقة من الجانب الآخر للغدير وهتف بي أحد الرفاق أن حيوان الأرماديلو (المـدرع) قد أفلت للتو من مطاردة الـكلاب ، فطاردت مع البدو هـذا الحيـوان بسرعة شـديدة ، وفجأة توقف الجميع ، فقد وجدنا الى جـوار شـجرة برجا يشـبه القندس (السمور) يبلغ ارتفاعه عدة أقدام ملتفا حـول الساق، وقد خرجت أطرافه من بين الفروع • لا أحد يستطيع أن يصف البناء المعمارى لهـذا الحيـوان العجيب • ومن الجانبين كان هناك مدخلان دائريان ، وعندما رأى البـدو هذه المنشأة انسحبوا للخلف بحذر •

وقد جعلني سالم أقف الى جانب أحـد المدخلين ، بينما وجه أتباعه الى اشعال النار عند المدخل الآخر ، وبينما النار تشتعل بدأ المبنى يطقطق ـ انه مخلوق خاص يشـبه التنين على نحو ما ، ولونه برتقالي ، ويزيد طوله بالتأكيـد عـلى أربعة اقدام ، وبدأ هذا المخلوق يزحف بحذر خارجا ، وكان بصدد العدو عندما أنهت طلقة ـ تعرف طريقها ـ حياته •

لقد كانت غنيمتي الشائقة هي عظاءة (سحلية) • انني لا أعرف كثيرا عن عالم الزواحف لكن في حدود علمي ، فان هـذا المخلوق كان « ورل » Varan Lizard • وكان هدفنا التالي هو ارسال هذا النموذج النـادر الى المعسـكر دون أن

يلحق بدنه تشويه ، ولأن العرب رفضوا باصرار أن يلمسوا هذا الجسد البارد بأيديهم ، فقد كان علينا أن نشيد نعشا صغيرا من فروع الأشجار لوضع الحيوان الميت فيه ، وارسال أحد البدو برفقته • وواصلنا رياضتنا لكننا سرعان ما لاحظنا أن الطيور قد أصابها الذعر ، لكثرة ما أطلقنا من طلقات ، ورأينا أن هذا الوقت غير ملائم لصيد الخنازير البرية • فعمدت مجموعة اطلاق النار كلها لبقعة ظليلة تحت شجرة كبيرة ، ولأن الحرارة قد أنهكتنا فقد انطرحنا فوق العشب ، وحتى البدو فعلوا ذلك ، بينما كانت كلابهم القوية تلهث طلبا للماء ، وقد تدلت ألسنتها • ولم يكن في الغدير ماء كثير ، ولم يكن هذا القليل صافيا بما فيه الكفاية ، لكن أحمد Achmed الرائع كان لديه ـ كما هي العادة ـ بعض زجاجات شراب الليمون كان يحملها في حقيبة فوق ظهره •

وبعد أن استرحنا لنصف ساعة ، دعانا سالم لمواصلة الصيد ، ورأى الدوق الكبير وهويوز Hoyos وايشنباخر Eschenbacher وراث Rath أن يعودوا أدراجهم الى المعسكر ، وأن يمارسوا الصيد وهم في طريق العودة • أما أنا وكورنسكي Chorinsky فقد كنا تواقين للعمل فتبعنا البد والى السهوب • وبعد مسير طويل وصلنا لدغل صغير منخفض ، تليه أرض سبخة وكتلة من البوص (الغاب) تمتد بضع مئات من الخطوات

وأوقفنا سالم عند أحد الجوانب ، وجعل مثيري الطرائد في الجانب الآخر • ان أية طريدة تغادر هذا الدغل يتحتم اطلاق النار عليها بمجرد ظهورها • انه كمين محكم • وكان أحمد Achmed تابعا يستحق التقدير ، لكنه لم يكن يحب اطلاق النار على الحيوانات البرية ، وبمجرد أن فهم ما سيكون استأذنني أن أسمح له أن يستريح خلف بعض الشجيرات بعيدا قليلا ، واختفى قبل أن يسمع اجابتي •

ووقفت بالقرب من مرتفع واضح استعدادا لصيد خنزير برى قوى ، واقتحمت الكلاب بعنف هذا الدغل من البوص (الغاب) وبدأت المطاردة ، وتتابعت أصوات المطاردة والنباح بسرعة ، واختلط نباح الكلاب بصيحات مثيرى الطرائد • وكانت صيحات مسعورة • وأخيرا بعد ربع ساعة مثيرة ، اندفع من الدغل خنزير برى ضخم واتجه بسرعة نحو الموضع الذى أقف فيه ، وأطلقت النار عليه فأصبته بجرح غائر تحت الكتف فسقط ، لكنه عاود الوقوف وهو يرغى ويزبد من الغضب وواصل طريقه ، ووقف أحمد Achmed الطبيب ــ بالضبط ــ معترضا طريق الخنزير ، لأنه لم يكن يدرى قدرة هذا الخنزير على الجرى (بعد اصابته) ، واندفع الحيوان الجريح وحاصر ــ بهياج مسعور ــ الرجل اليائس ، ولحسن الحظ فقد كنت أجرى متابعا الحيوان بأقصى سرعة فوجدت أحمد وقد قبض على سكينه مستعدا للضرب بها ، وراح يصرخ بصوت عال وقد وقف على رجل واحدة ورفع الأخرى فى وجه الحيوان الغاضب الذى تهيأ لانقضاض حاسم لكنه سقط طريح الأرض قبل أن يصل لبطلنا ، ذلك لأننى تحققت الخطر الماحق فأطلقت النار عليه ، وكانت ضربة قدرية مسددة فقد أوردته موارد التهلكة •

لقد كان الحيوان القتيل أنثى خنزير قوية تبلغ من العمر عامين ، وقد أصابتها الطلقة بينما كانت فنطيستها قد لامست بالفعل سروال أحمد الواسع • والآن ، لقد انطرح الخنزير البرى بسلام الى جانب المصرى ، وكان أحمد قد اخضر لونه لشدة الرعب وكانت كل أعضائه ترتعش ، ولم يستطع استعادة قدرته على الكلام الا بعد عدة دقائق • وسرعان ما وصل البدو لمسرح العملية وعيونهم تلمع ببهجة •

وكان هذا الخنزير يشبه خنازيرنا تماما خاصة الخنازير الضخام فى الغابات المجرية ــ لكنه مختلف تماما عن خنازير الشمال الأفريقى ، فهذه الأخيرة أصغر حجما بكثير ،

وتكوينهـا أكثر دقة ، ولونهـا أكثر سـوادا وكأنها مطلية بالزفت • ونزع مسـاعد الصيد التـابع لي أحشاء الخنزير بسرعة وطرحه العرب على مجمـوعة أخشـاب مربوطة معا ، وحمل أربعة رجال هذا الحمل الثقيل الى معسكرنا •

وضاع أرنب برى من كورنسكى Chorinsky وتغلغل في الدغل — انه أرنب صحراوى صغير أصفر ، كنا قد ألفناه كثيرا في أفريقيا • لقد أصبح السير في السهوب في هـذه الشمس الحارقة لا يبعث على السرور كثيرا • وعندما غربت الشمس مخلفة وراءها شفقا أحمر خلف حدود التلال ، وصلنا لهذه الأدغال وواصلنا مسيرنا قرابة ساعة • وكانت طيور السمان تقابلنا في كل خطوة نخطوها ، لكن الارهاق كان قد بلغ منا مبلغا شديدا فلم نعد نفكر الا في الوصول للمعسكر • وقد جعل غدير ماؤه صاف ، يجرى بمرح ويرشرش الماء — جعل مسيرنا منعشا ، فواصلنا مسيرنا وقد هبط الليل تماما ، ورأينا بعض النيران تضيء بين الأدغال • لقد كانت هـذه النيران في معسكر البدو المعينين لمرافقتنا • لقد بدا هؤلاء البدو كالأشباح بقاماتهم الطويلة وعباءاتهم البيضاء الكاسية وقد انعكس عليهم لون أحمر من جراء الجمرات والنيران • وكانت الرماح الطـويلة تشـمخ عاليا ، بينما انبعثت من الحناجر العربية الغليظة أغان غير مفرحة راح صداها يتردد خلال الليل • كانت الخيول ناعمة مستريحة فوق الحشائش بينما جرت الكلاب نابحة لمقابلتنا • ومررت أنا وكورنسكى بين هؤلاء البدو أبناء الصحراء ، فحيونا بشكل ودود وراحوا يقدمون لنا المشروبات الباردة طوال مرورنا بهم ، وبعد ربع ساعة أخرى وصلنا للدروز النشـيطين — خـدم هـوارد — والبغال ، والى جوار الخدم الدروز والبغال عسكر الخيـالة الترك • وما هي الا مائة خطوة ووصلنا لخيامنا •

وبعد الغروب زادت الحرارة شدة ، وكانت تزداد كلما أوغل الليل فغرقنا جميعـا في العـرق وعانى بعض الرفاق والخدم معاناة شديدة من هذا الجو الخانق ، وركود الهـواء

ركودا غير مألوف • ورغم التجارب العميقة التى صادفناها اثناء النهار والنجاحات التى حققناها فى مضمار الصيد ، الا ان شعورا بالاحباط النفسى والروحى بدا وكأنه يسود بين مجموعة الرحلة ، بل وازداد هذا الشعور فى الأيام التالية • ان جو وادى الأردن جو يترك تأثيرا محـزنا كئيبا عـلى كل الأوربيين •

وفى بكور اليوم السادس من الشهر قررنا أن نقسـم انفسنا الى مجموعات لممارسة رياضة الصيد ، فذهب عدد من الرفاق فى الاتجاه الذى كنا فيه بالأمس ، أما الدوق الكبير وأنا فقد صحبنا سالم وجماعته ، فركبنا مخترقين أراضى البساتين الرائعة نحو أريحا ، وبالقرب من هذا المكان يهبط غدير من التلال ليعبر سهل الأردن • ومرة أخرى كان علينـا أن نغوص فى الشـواطىء الطفلية وأن نتحرك عبر الكتـل الصخرية ورذاذ الماء ، وبين أشجار نامية تحت أشجار كبيرة ، كانت كثافتها أشد من كثافة الدغل الذى كنا عنده قبل ذلك حول الغدير • وبقى الدوق الكبير عند الجانب الأيسر بينما تسلقت أنا نحو اليمين ، واندفع البدو بين الأشجار الكثيفة . وبدأت مطاردة سعيدة ، فما هى الا دقائق قليلة الا وكنا قد أطلقنا بنادقنا على طيور مختلفة ، لكننا سرعان ما تركنا هذه الطرائد الصغيرة ، لأن البـدو قد وقعوا عـلى آثار حـديثة للخنازير البرية •

وسرعان ما ظهر التحدى على الكلاب ، فقد ظهر خنزير برى بين الدغل ، لكن ظهوره كان للحظة فلم يكن من الممكن اصابته ، وسرعان ما ظهـر خنزير آخـر عقب الأول يقفز كالأرنب البرى أمام مثيرى الطرائد بين الحشائش ، فألقمه الدوق الكبير طلقة فهوى • وتم سحب الحيوان ـ وهو أنثى خنزير تبلغ من العمر عامين ـ من الغدير ، وأرسلناه محمولا على ظهر حمار الى المعسكر • وهربت منا خنازير برية مختلفة بين الأشجار اما عادت من حيث أتت أو واصلت اندفاعها . وقد أفلت خنزير من الدوق الكبير فى وسط الغدير •

وسرعان ما نبحت الكلاب مرة أخرى، فقد تسلق خنزير جميل fine له أنياب طويلة بيضاء متألقة ــ المنحدر الكائن بيني وبين مثيري الطرائد ، وهو يتمش ويندفع محدثا جلبة ، قاصدا الهروب الى السهوب فألقمته طلقة تحت كتفه فتمدد ، وبلغت بي السعادة منتهاها وأنا أبعث بصيدي السمين للمعسكر • ثم عاودنا التركيز على صيد الطيور العديدة • طيور حجل الصخور الحمراء والأرجوانية وطيور مالك الحزين (البلشون) ، بالاضافة لطيور السمان وطيور الشنقب (ويسمى أيضا الجهلول أو البكاسين) لكن النسور كانت بعيدة فلم نصطد منها شيئا •

ولما كانت حرارة منتصف النهار قد أصبحت شديدة ، فقد رأينا أن نوقف الصيد لفترة ، فهبطنا للغدير ، فوجدنا في الطفل آثار الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى وآثار حيوانات الوشق (بفتح الواو والشين) وأخرى لقطط أصغر حجما • ووفقا لما ذكره البدو ، فان الحيوانات الكلبية (الشبيهة بالكلب) تهبط من التلال ليلا فقط بحثا عن المياه ، حيث تكون حيوانات العائلة القططية (الشبيهة بالقطط) قاطنة في الدغل قريبة في متناول اليد ، وان كانت ــ حتى الكلاب ــ لا تستطيع اخراجها من مكامنها •

لقد كانت آثار الشيهم (بتشديد الشين وفتحها ــ ويسمى أيضا النيص بتشديد النون وفتحها) ظاهرة متتابعة أيضا ، وتابعنا الكلاب التي جرت للجحر ، فوجدنا بعض أشواك هذا الحيوان الفضولي وآثارا حديثة له فقررنا اخراجه من جحره العميق ، فأرسل مساعد الصيد التابع لي للمعسكر لاحضار كلاب الدشهند وبعض الجواريف ، وفي انتظار عودة الرسول جلس مساعدو الصيد تحت شجرة ليشربوا عصير الليمون وليدخنوا السجائر • وكان الدوق الكبير قد اصطاد خلال هذا الصباح حيوانا نادرا للغاية وهو جربوع (يربوع) Jerbaa يشبه الكنجارو •

وحالما وصلت كلاب الدشهند وجهناها للجحر ، وسرعان ما سمعنا نباحا وأصوات تشابك ، لكن للأسف فهذه الـكلاب رغم أنها شجاعة في العـادة ـ سرعان ما خرجت من الجحـر وقد وضعت ذيولها بين أفخاذها خوفا ورعبا ، ولم ترغب في دخول الجحر مرة أخرى ، فطلبنـا من البـدو أن يحفروا ـ وشرعوا في ذلك فعلا لكن ببطء فقد كانت الشمس حارقة ، كما أن طباعهم تميل للحركة والصيد في الهواء الطلق ، أكثر من ميلهم للعمل الشاق •

وشعرنا أن محاولاتنا كانت بلا طائل فقررنا التوقف . لكن في الوقت نفسه اكتشفنا أثرا مقدسـا شـائقا • لقد اكتشفنا في مدخل الجحر كتاب التراتيـل البروتستنطي ، ربما حمله هنا بعض حيوانات الجحور وفقا لعادة كثير من الحيوانات التي تحفر مساكنها •

وكان في الكتاب ـ على أية حال ـ تراتيـل وصـلوات انجيلية (بروتستنطية) أصـيلة ، ودعـوات للامبراطور وليم • وبشكل عام كان المجلد بحالة جيدة من الداخل والخارج الا أن على أوراقه بعض بقع دماء • أن الله وحده هو الذي يعلم كيف وصل هذا الكتاب الأوربي لهذا الموضع المـوحش وكيف فقده صاحبه ، ربما كانت عظامه قد تحللت في مكان قريب في هذا الدغل الكثيف •

وركبنا خيولنا وعدنا لمعسكرنا • كان سالم يسـير في المقدمة وكان فرسه يعدو عدوا غـير سريع • وكان سـالم يمتطي حصانه الصغير الأحمر الكستنائي المشوب ببياض ـ بدون سرج ، ويوجه حيوانه اللعوب هذا برسن واحد يسحبه من جانب واحد •

وبالقرب من أريحا لاحظت نسرا يغتسل في الغدير فقفزت اليه مستترا بالشاطىء الناتىء ، وفي غضون دقائق قلائل استقر الطائر الباهر في حقيبتي •

وقد أطلق الرفاق الآخرون بنادقهم فاصطادوا عددا لا بأس به من الطيور الصغيرة ، وأقمنا معرضا منظما لما اصطدناه عندما وصلنا جميعا للمعسكر • وبعد ذلك تناولنا افطارنا ، وكان مما لا يبعث على السعادة أننا قضينا معظم الوقت في ذب الذباب أكثر مما قضيناه في الأكل ، ومن الصعب أن أصف حشود الحشرات التي كانت تهاجم طعامنا • لقد قضينا أكثر الساعات حرارة في المعسكر نتلمس الراحة ، فقد سببت لنا الحرارة المرعبة ــ للأسف ــ عذابا مستمرا ، وكان من الصعب على المرء أن يجمع أفكاره ليكتب ملاحظات مختصرة أو يكتب بعض الخطابات • لقد كنا نستمتع يوميا في وادي الأردن في فترة الظهيرة بدرجة حرارة مقبولة هي ١٢٢° فهرنهيت •

وفي حوالي الساعة الخامسة عصرا خرجت مرة أخرى مصحوبا هذه المرة بسالم وحده وبعض البدو • وفي البداية أطلقت بندقيتي على بعض الحمام الهادل فوق الأشجار ، ثم تجولنا عبر بعض حقول الشعير القديمة ، فاصطدت عددا كبيرا من السمان لايداعها في صندوق حفظ اللحوم ، وكان هذا ضروريا ، لأن مخزوننا من اللحم كان قد بدأ ينتن شيئا ما ، وانبعثت الرائحة الكريهة من اللحوم المحفوظة لتملأ المعسكر • ورحت أمشي الهوينى بالقرب من الأدغال والبساتين فلاحظت الغطاء النباتي الباهر للمنطقة ، لقد لاحظت على نحو خاص أشجار الضال Zizyphus Lotus (*) وأشجار العناب Spini-Christi التي يصنع من ثمارها

(★) عن معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية : نوع شاهدناه بريا في الغور وفي الحولة على مقربة من بانياس ــ (المترجم) •

العناب المعروف الذى يحبه الأوربيون • ويستخدمونه كعلاج للكحة ، وكذلك أشجار البلسم Solanum Sanctum • أما الورود فلم أجد الا ورود أريحا الشهيرة ، وهذه الورود موجودة أيضا ــ بشكل نادر ــ على ساحل البحر الميت • وعند الغروب عدت للمعسكر فتناولت عشائى وخلدت للراحة •

وفى صباح اليوم التالى جمعت الخيام وحدثت الجلبة المصاحبة لهذا العمل وعم الصياح ، وبدأت قافلتنا فى التحرك ، وتبعناها بعد تناولنا الافطار مباشرة يدلنا بدوى برمح طويل وعباءة واسعة يداعبها الهواء ، وكان يركب حصانا كستنائيا جميلا • ويمكن اعتبار هذا الرجل نموذجا للعربى الأصيل ، وقد استغنى الباشا عن خدمات الشيخ الذى كان حتى الآن يعمل كمرشد، لأسباب لا أعرفها، وفى البداية ركبنا عند سفوح التلال الحدية عند حافة الأراضى الخضراء ومررنا بين شجيرات كثيفة وتحت أشجار منخفضة كانت ــ بلا مبالغة ــ مغطاة بطيور اللقلق التى استيقظت من سباتها • وبعد برهة اختفت الأدغال ، وتجاوزنا أرض البساتين الطبيعية فى منطقة عين السلطان، ومرة أخرى استقبلتنا السهوب •

كانت الأرض ــ بشكل عام ــ ملائمة للخيل وكان يمكن للمرء غالبا أن يجرى بحصانه خببا ، الا أنه بين الحين والحين كانت تعترضنا مواضع صخرية ، ومجار مائية بالقرب من الجبال ــ كان علينا اجتيازها • وبعد ساعتين من الركوب انفتح الوادى الجبلى العريض شيئا ما ــ عن يسارنا ، وفى داخل هذا الوادى عند آخر نهايته يوجد ينبوع العوجة El Audje وهو ينبوع يخصب التربة ، ويحافظ على ما بها من خصوبة بالفعل ، انه يفيض خلال الوادى ومن ثم عبر السهل الى نهر الأردن • وكان علينا أن نعبر أدغالا وأشجارا قصارا مرة أخرى ، وعند الجانب الآخر لهذا الشريط الأخضر الضيق ، كان سالم ينتظرنا مع جماعته ،

وكان مشتاقا للمطاردة مستعدا لقيادتنا لأرض عامرة بالطرائد ·

واستدارت القافلة الكبيرة ومعظم الرفاق الى اليسار فى الوادى الجانبى الى نبع العنوجة ، أما أنا والدوق السكبير وهويوز Hoyos فتبعنا البدو · كان عدد مدهش من الطيور الجارحة على الأشجار هنا ، وفى غضون دقائق خمس اصطدت نسرا من نوع جين الأبيض Jeans le blanc ونسرا آخر من نوع النسور المتنقلة botted eagle · أما هويوز فـ اصطاد نسرا منتعلا أيضا ، وامتدت حقول الشعير البرى بين الشجيرات التى احتشدت فوقها أسراب السمان وكانت تطير أمامنا فى كل خطوة ، ولما كان لدينا قدر كاف من الذخيرة فقد كان نجاحنا رائعا فى اصطياد عدد كبير من هذه الطيور · وكان طائر الحجل ذو السيقان الحمراء موجودا أيضا ولكن بأعداد قليلة ، أما طيور حجل الصخور فلم يكن لها وجود · وادى بنا المسير الطويل شرقا الى توغلنا بعيدا فى داخل سهل الأردن · وعدنا مرة أخرى لحافة السهوب فاسترحنا فى ظل شجرة لنصف ساعة ، ثم ركبنا خيولنا يتبعنا البدو سائرين على أقدامهم ، وتقدمنا على طول سهل معشوشب مصفر ·

وفى غضون حوالى نصف ساعة وصلنا لحافة مجاز عميق فى الهضبة المرتفعة ، يقع أدنى (أكثر انخفاضا) بكثير من غدير رقراق ، يجرى بين شاطئين مرتفعين من طين بنى لونه · وكان للمنظر ــ الذى بدا مفاجئا ــ تأثير مروع فترجلنا عن خيولنا وكان علينا أن نهبط الشاطىء المنحدر بشدة ، وأسرعنا متقدمين خلال الشعب الضيق القريب من الغدير ، الذى لم يكن ماؤه المالح ليروق لنا ــ حتى وصلنا لمسيل صغير تحيط به من الجانبين جدران طفلية عمودية يبلغ ارتفاعها بضع مئات من الأقدام · وكان داخل السيل مليئا بحشائش المستنقعات وبعض الشجيرات القصيرة وبوص (غاب) السبخات والمستنقعات · وكان مخرجه الوحيد ممرا ضيقا يرتفع الى الجانب الشرقى للجرف حتى قمة الحيد ·

والآن ، فان سالما يدعونا الى أن نتخذ لأنفسنا موقفا في الجانب المقابل للدغل ، بينما كان عليه هو ورجاله وكلابه أن يثيروا الطرائد في نباتات البردي الطويلة (*) • ولم يمض على وصولنا لمواقعنا وقت طـويل ، حتى غادر خنزير برى غطاءه النباتي وسلك الطريق الوحيد للهرب وهو الممر الضيق الصاعد في الجبل وتسلقه برشاقة الظباء ، ولم تصبه طلقات بنادقنا الأربع من البعد ، فجريت بسرعة لأكون قريبـا من هذا الممر الضيق • مازلت بعيدا بحوالي مائتي خطوة عـلى الأقل عندما ظهر خنزيرى برى آخر يفر متخذا الممر نفسـه فأطلقت طلقتين الى بدنه ، لـكن أيا منهما لم تورده مـوارد التهلكه • حقا لقد أصيب وراح يجبل برجله الخلفية وجـر نفسه جرا بطيئا فوق حيد الجبل •

وصعد مثيرو الطرائد وتحلقوا حـولى فحثثتهم على أن يتبعوني بحذر لمسافة معينة ، لأنني كنت راغبا في أن أقص أثر الدماء بنفسي • ولما بدأنا وجدت أثرا حديثا لنمر ، وبعد ذلك مباشرة وجدت الخنزير الجـريح ، وسرعان ما وصـلنا لقمة الحيد فتجلى لنا منظر رائع للوادى ، فمـع أنه لم يكن عريضا الا أنه ثرى بكل أنـواع النبـات : أدغال ، ومروج وأشجار باسقة ، وفي الناحية الأخرى جروف حادة ترتفـع لتحجب الرؤية •

وبتتبع الأثر نفسه أسرعت هابطا لبطن الوادى فلمـا وصلت ، قادني الأثر عبر مرج بين الشجيرات فوق غدير ينبع من بين الأحجار ومواضـع مسـتنقعية ـ الى حافة الدغل • وهناك انتظرت وصول رفيقي والبدو ، وواصلت الكلاب متابعة الأثر ، وما هي الا دقائق قليلة حتى سـمعت صـوت المطاردة والنباح المرح • ان معركة حامية الوطيس تجرى •

(*) النص Sedge والمعنى القاموسي نبات البردى أو السعادى • معجم المورد ـ (المترجم) •

فاسرعت خلال الدغل فوصلت لمرج صغير تحوطه الأشجار والشجيرات من كل ناحية ، وكانت تدور في ساحته معركة حامية • فقد هجمت الكلاب بشجاعة وراحت تعض عدوها وتسحبه ، وكان العدو مازال قادرا على الدفاع عن نفسه بهمة وشجاعة • فانتهزت اللحظة المناسبة فأطلقت طلقة صائبة على الخنزير القوى ذى الأنياب الجميلة •

وأصبح الوقت متاحا للتطلع حولى • لقد أمكنني أن أرى بين الاشجار السامقة والشجيرات ، وامامي وغير بعيد عني سطح بقعة مياه رقراقة ، وكان يمكننا سماع صوت خريرها ، فدعوت رفاقي بسرعة ليستمتعوا معي بالمنظر الجميل • شكرا للظروف التى أتاحت ملاحقتي للخنزير البرى ، فقد أشبعنا رغباتنا ووصلنا للنهر الذى يحظى بالتقديس ـ انه نهر الأردن الشهير • وأسرعنا لنهبط الأرض المتضرسة خلال الآجام الى الشاطىء الرملي ، حيث يمكنني أن أعاين مجراه والمناطق الجميلة المحيطة به • كان يحف النهر من الجانبين مراع خصبة تتخللها أشجار ذوات ظل ظليل وشجيرات صفصاف ونباتات مثمرة ـ وبشكل عام فالغطاء النباتى هنا يشبه الغطاء النباتى للمواضع القريبة من المياه في أوربا • والنهر نفسه له صفات المجارى الجبلية الأصيلة : سريع يرغى ويزبد بين الصخور والأحجار •

ومياه نهر الأردن باردة جدا اذا قورنت بحرارة الجو الشديدة ، ويعد تبريد الجسم بعناية قبل السباحة فيه مسألة ضرورية • وفي غضون نصف ساعة توغلنا حتى منتصف مجرى النهر ولم يساعدنا ذلك على الانتعاش فحسب ، وانما كان مفاجأة شائقة في رحلتنا ، ومن المفترض أن الاسرائيليين عبروا هذا النهر بمعجزة فنجوا • وهنا عاد داود الى مملكته مستقلا قاربا مع بارزيلى Barzilli ، وهنا شق الياه Eljah الموج بعباءته فانفلق •

وفي الأزمنة الأخيرة فان كريستوفر الجان ولد المسيح (عليه السلام) بين هذه المياه نفسها (مياه نهر الأردن)(*)، أما ارتباط هذا النهر بالمسيحية نفسها فهو أن يوحنا عمد المسيح (عليه السلام) هنا ، وكان يوحنا يقطن الصحراء ويرتدى وبر الجمال ويتقوت بالجراد والعسل البرى ، وقد أقبل المسيح الناصرى (عليه السلام) ، ليزور يوحنا الرجل التقى ، فقام يوحنا بتعميده ، فكان يوحنا أول المؤمنين بالمسيحية • وفي هذه المروج — أيضا — سمع صوت الأب : « انت ابنى الحبيب الذى به سررت » •

ويأتى المقدسون (حجاج بيت المقدس) عاما وراء عام في مواكب، ليستحموا في نهر الأردن ويحملوا بعضا من مائه وهم عائدون لديارهم • ليعمدوا به أطفالهم ، والأورثوذكس يستحمون في النهر وهم يلبسون العباءة التى أعدوها لتكون كفنا لهم •

وبعد أن انعشنا أنفسنا بالاستحمام في النهر واستردنا عافيتنا أسرعنا — يتبعنا البدو لنستأنف طريقنا في اثر آثار الخنزير البرى، عبر بطن الوادى ثم صاعدين الى حافة الهضبة التى كنا قد هبطنا منها آنفا • وانطلقت الخيول تجرى خببا فعبرنا السهوب من جانب الى آخر بارشاد سالم • وبالقرب من مدخل وادى العوجة الضيق قابلنا المحافظ (المدير) وبعض الجنود • وكان تأخرنا لفترة طويلة بالاضافة الى أن الاتجاه الذى اتخذناه لنهر الأردن قد جعله (أى المحافظ) قلقا ، فخرج ليتفقدنا ، وكنا قد تجاوزنا الأرض التى بدأنا فيها صيدنا صباحا ، وبعد ذلك استدرنا لداخل الوادى الذى كسته خضرة يانعة ، بينما التلال حول جانبيه لا تختلف في طبيعتها عن بقية الجبال الحدية الأخرى — منحدرات طويلة شديدة قلما يغطيها العشب • وكان طريقنا الضيق الذى

(*) اشارة الى خرافة يروجها اليهود ضد السيد المسيح عليه السلام — (المترجم) •

بدا لا نهاية له ، يمر خلال أدغال كثيفة وشجيرات شائكة ، وبين الحين والآخر كانت تمترضه غدران تحيطها الصخور . وكانت طيور اللقلق التي لا يمكن حصرها تقف على المنحدرات . لم يسبق لي ان رأيت تجمعات لهذا الطائر بمثل هذه الكثافة التي اراها هنا خاصة في وادي العوجة ، وبشكل عام في سهول وادي الأردن .

ووصلنا لمعسكرنا ـ أخيرا ـ بعد هذا المسير الطويل . كانت الخيام منصوبة عند سفح الجبل على حشائش السهوب ونباتات الشمير (النص : الشوفان Oaks) البرى ، لكنها قريبة من خضرة وافرة يانعة ، وعلى جانب غدير صغير . لقد وصلنا الآن تقريبا الى رأس الوادي(*) حيث بركة جميلة ذات حواف شديدة الانحدار . وأكلنا أكل جائع لأن الساعة الآن الثالثة بعد الظهر ، ولم نكن قد تناولنا طعاما منذ الساعة الخامسة صباحا ، بالاضافة الى أننا أرهقنا أنفسنا خلال هذه الفترة .

وقضينا فترة ما بعد الظهر (من العصر حتى الغروب) في المعسكر . ان حياة القافلة في الهواء الطلق وفي الخيام في الغاية من الجاذبية ، وتختلف بشكل ملموس عن الحياة الأوربية الروتينية . ولسوء الحظ أنه كان في معسكر العوجة بعض الأمور المزعجة . فقد نصبت الخيام على موضع أرضه ذات أعشاب جافة ، مما يجعلها قابلة للاشتعال ، ولما كان الرفاق يلقون بأعقاب سجائرهم بغير اكتراث ، فقد تسبب هذا في نشوب حريق استمر دقائق قلائل وأمكن اطفاؤه بوسائل بسيطة . وكان علينا أن نضاعف من حرصنا نظرا لكثرة الذخائر معنا ، ولم يزد هذا الحرص كثيرا عن تحديد عدد السجائر التي ندخنها . وأكثر من هذا فان الغدير قد جف بعد وصولنا بقليل ، وكان هذا الغدير

(*) من الواضح ان الوادي منحدر وهو يقصد هنا الجانب العلوى من الوادى ـ (المترجم) .

ضروريا لقافلتنا ، ولما سألنا اتضح أنه سد وتحول عن مجراه ، ولم يعد الغدير كما كان ـ أى الى مجراه المار بجانب معسكرنا ـ الا مساء ، فانعش البغال والخيول التى كانت تعانى الظمأ .

وكان لدى الباشا من الاسباب ما يجعله يشك فى ان الشيخ البدوى الذى طرد من خدمة القافلة بالأمس ، كان هو المدبر لهذا الأذى . وفى المساء خرج عدد من الرفاق فى جولة صيد صغيرة . وقد نجحت فى اصطياد طائر حجل احمر الساقين وطائر لقلق كان فى طريقه لعشه . الاف من هذه الطيور الطويلة مناقيرها مرت بمعسكرنا ، وحطت فوق الأشجار القصيرة ، لقد كانت كثيرة بقدر ما يتاح لها من مكان تحط فيه فوق الأشجار . وعند الغروب عدنا جميعا لتناول العشاء . وبينما أنا أتهيأ للنوم سمعت عواء حيوانات ابن اوى الجائعة بالقرب من الخيام .

وفى بكور الثامن من ابريل جمع الخدم الخيام وتحركت قافلتنا مرة أخرى . وفى البداية كان علينا أن نرجع من حيث أتينا بأن نسلك الطريق المرهق فى الوادى الجانبى ، حتى وصلنا الوادى الرئيسى فسارت الأمور على نحو أفضل ، فعدونا بخيولنا على طول السهوب عند سفوح التلال طوال ساعتين ، حتى وصلنا للمنخفض المستنقعى . كانت هناك آجام متفرقة ، بالاضافة الى بعض السبخات الممتدة ، وقد ضايقتنا هذه السبخات شيئا ما عند ممارستنا للصيد . وكان سالم ورجاله النشيطون موجودين بالفعل هناك ، لكن لأن دور سالم قد انتهى هنا ، فقد كانت هناك مجموعة أخرى من البدو فى انتظارنا على رأسهم شيخ وسيم جدا تتبعه كلاب ضخام كثيرة ، وكان أتباعه يلبسون ملابس كالتى يلبسها رجال سالم وان كان يبدو على شيخهم أنه من طبقة اغنى . وكان حصانه الكستنائى الجيد مغطى بسرج

وأغطية ثمينة مزركشة ، وكان كساء الشيخ جميلا وعمامته كبيرة ملونة وحذاؤه مغربيا جميلا مزركشا ، وكان سيفه تركيا معقوفا ــ كل ذلك يدل على ثرائه وغناه • لقد كان منظره ــ بشكل عام ــ يحمل طابع رجال قبائل المناطق الداخلية في آسيا ، أكثر مما يحمل طابع العرب الخلص •

وقد رافق ثلاثتنا : الدوق الكبير وهويوز وأنا ، بأدب ملحوظ ــ الى مواضعنا في الجانب المقابل للدغل ، وتابع باقي الرفاق مع بقية القافلة مسيرهم الى نقاط أبعد •

وملأتنا بعض آثار الخنازير البرية والضباع بالأمل لكن سرعان ما خاب أملنا ، فقد كانت الأرض المستنقعية واسعة جدا ويصعب العمل بها • ولم يستطع مثيرو الطرائد اختراقها والتوغل فيها ، وكل ما استطاعوا عمله هو الجرى والصياح حول أطرافها • كانت ممارسة الصيد هنا متعبة فلم يطل أى حيوان برأسه من مكمنه •

ومن ثم فقد ركبنا خيولنا مرة أخرى ولحقنا بالآخرين وعبرنا حيدا ناتئا ذا أرض صخرية ، ومن منحدره الشمالى ألقينا نظرة ممتعة على السهل العريض والتلال الخضراء التى تحده غربا والجبال الصخرية الشامخة على الضفة الشرقية لنهر الأردن •

وكان أمامنا مخرج الوادى ومنطقة عبد القادر الجميلة ــ لقد كان ذلك واضحا أمامنا يمكن رؤيته وهو في الوقت نفسه هدف رحلتنا في هذا اليوم • ان المرء يرى على مسافة طويلة في هذه السهول ويمكنه أن يصل الى المركز الذى يرغب الوصول اليه ، وان كان ذلك ببطء • فالطريق يسير عبر السهول لا تعوقه عوائق الى جوار سفوح الجبال •

ولما استدرنا لم نر شيئا سوى طيور اللقلق • لقد كانت تترك الخيالة تمر على بعد خطوات قليلة منها دون أن تعيرها التفاتا ، وكانت بعض الطيور الجارحة تحلق في الهواء ، وحلق زوج من النسور الآسيوية الضخمة على ارتفاع منخفض

فوق رأسي ، وصوبت بندقيتي بسرعة لـكن لم تكن هنـاك طلقة واحدة ، فقد كانت الخزانة فارغة ٠

الشمس محرقة ، ولم تعد هناك تلك السحب التي كانت موجودة في ساعات الصـباح لتخفف من وطأة حرارتهـا ٠ واأسفاه ! ٠ وسرعان ما لحقت بالقوافل ٠ كان منظـرها يرثى له ٠ فالبغال يتلو بعضها بعضها الآخر ، وبين كل بغل والبغل الذي يليه بضع مئات من الخطوات ٠

وكانت البغال تجر نفسها جرا ، لفرط ما تحسـه من ارهاق وألم تحت وطأة ضربات سائقيهـا ٠ لقـد كان تأثير الحرارة وما عانيناه قبل ذلك في منطقة لترون Latrun قبل أن نصل للقدس والحـاجة الملحة الآن للماء ، كل ذلك ترك تأثيره بشكل واضح ، وكانت كل البغال تنوء بأحمالها فانحنت ظهـورها ، لثقل ما تحمله من متاع وبدت أرجلهـا وكأنها مكسورة ٠

وبعد أن ركبنا لعدة سـاعات ، وصلنا لمدخـل وادى عبد القادر الذي يتخذ اتجاها شـماليا غربيـا بين الجبـال المرتفعة ، وكما هو المألوف كان ثمة غدير يجرى في بطنه ، وكان لشاطيء الغدير غطاء نباتي وافر وفرة غير معتادة ، واستمرت هذه الخضرة تحف الغـدير في هبـوطه مخترقا السهل حتى نهر الأردن ٠ ولأن الغدير لم يكن يمكن عبـوره ونحن على ظهور الجياد الا من نقطة واحـدة ، فقـد كنـا مضطرين أن نستمر بعيدا داخـل الوادى عـلى الشـاطيء الجنوبي للغدير ، ثم نعود المسافة ذاتها على شاطئه الشمالى ، وهناك انفتح الوادى ليصبح سهلا كبيرا ، حيث كان معسكرنا منصوبا بين مخروط صخرى وبداية الأرض الخضراء ٠

كان الرفاق قد وصلوا بالفعـل ، لكن القـوافل كانت ماتزال بعيدة لذا ، فقد انتظرنا وصـول خيـول التحميـل ــ بسعادة ــ في تجويف صغير هيأ لنا ظلا ٠ وقضى بعضنا هذا

الوقت بحثا عن مواضع للاستحمام • كان الغدير ممتلئا عن آخره بالنباتات الريانة (كثيرة العصارة) ، التي يزيد طولها عن قامة الرجل واشجار الدفلي ، التي تغطيها بكثافة زهور حمراء ضخام احجامها ذوات روائح عطرية — وبسبب هذه الكثافة النباتية قلما يستطيع المرء الوصول للماء ، وأكثر من هذا فان المنطقة كلهـا لها المنظر نفسـه الذى للمـواطن الجنوبية للثعابين ، وقد وضعت في اعتبارى هـذه الزواحف السامة فى هذه المنطقة ، وفضلت أن أستحم فى غدير فرعى ضـيق ، بل وقذر الى حـد ما بصحبة جعـران الطين toads والضفادع — بعد أن تفحصت موضع استحمامي جيدا تحسبا لوجود زواحف سامة •

ولمـا عدنا للمجرى الرئيسى للغدير وجـدنا خيمـة ومضجعا قد نصبا فى موضعهما بالفعل ، فتناولنا افطارنا فى الحال رغم الحرارة المرعبة ، ورغم أن ذبابا كثيرا كبيرا حجمـه يدعـو للقرف والغثيان كان لا يكف عن الدوران حولنـا • وكان على بعض الرفاق أن يتتبعوا الغـدير حتى مخرجه عند السـهل العريض ، بينما كان عـلى أنا والدوق الكبير أن نندفع داخل الوادى • وبتوجه من سالم والشـيوخ الآخرين حاولنا أن نثير الطرائد فى الأشجار الكثيفة عـلى شاطيء الغدير وشجعنا على ذلك بعض آثار الخنازير البرية • لقد كان ما دخلناه بستانا حقيقيا — ثروة هائلة من الزهور والشجيرات الريانة والأدغال الملتفة ، كللت هاماتها باللون القرمزى لزهور الدفلى • روائح رائعة — انها روائح الشرق العظيم • انها فردوس كتلك الفراديس الواردة فى ألف ليلة وليلة ، لكن لكل شيء اذا ما تم نقصـان ، كما هى طبيعـة الأمور فى العـالم كله — فان هـذا الفـردوس كان عامرا بالأشواك ، فرفضت الكلاب العمل ، وفى ظل هذه الظروف ليس ثمة مجال للحديث عن ممارسة الصيد ، ففى كل خطوة كانت الأشـواك تنغرس فى أجسـامنا ، فهربنا من هـذا الفردوس بسرعة الى مواضع أقل كثافة فى غطائها النباتى •

لقد فاجأتني الكثرة الهائلة للسحالي فاتحة اللون في هذا الفردوس الذي سبب لي آلما ، ففي كل خطوة كانت الزواحف تقفز بين الحشائش . واستدرنا مطلقين بنادقنا على طيور صغيرة أثناء سيرنا وعدنا للمعسكر مساء . أما الرفاق الآخرون فكانوا أسعد منا حظا ، فقد عادوا بطيرين من طيور الدراج لونهما كلون دجاجات غينيا وحول رقبة الواحد منهما طوق من زغب أحمر . لقد أصبح لدينا الآن نماذج جديدة من عالم الطيور ، وسنتابعها في الأيام التالية ونتعرف عليها بشكل أفضل .

وودعنا هنا سالم ورفاقه وداعا حارا دافئا ، فقد كان على الأتباع المفيدين أن يعودوا لديارهم وبعد أن تناولنا عشاءنا استمتعت بالقاء نظرة رائعة على معسكرنا وما حوله . كانت النيران تلقى ضوءا جميلا على الجروف وعلى الخدم والبدو وهم يروحون ويجيئون . كان أمامنا في الغد انجاز كبير لأننا قررنا أن نجتاز مركزين من مراكز التوقف لا مركزا احدا (قررنا أن نقطع مرحلتين في مرحلة واحدة دون راحة) .

وقبل شروق الشمس ــ بل والليل ــ فعلا ــ مازال حالكا ، عمت الحركة المعسكر ، فجمعت الخيام وطويت وبدأت القافلة المسير ، وسرعان ما لحقنا بها راكبين خيولنا حول المخروط الصخرى فوصلنا الى السهوب . الوادى يضيق عند هذه النقطة . التلال الغربية تتقدم في الوادى ، وكان علينا اجتياز المنحدرات الشديدة والمسيلات العميقة والمواضع الصخرية ، وسعدنا ببعض المناظر الجميلة ــ عبر وادى الأردن ــ التى زادت جمالها الغدران الجبلية والممرات الضيقة والتلال الرائعة ــ على الضفة الأخرى بهيئتها الجميلة وجروفها الكثيرة خضرتها . وكان ثمة برج قديم على أحد تلك الجبال ، ولم أستطع معرفة الفترة التاريخية التى يرجع اليها ولا من بناه في منطقة لا يسكنها الا البدو .

. . لقد وجدنا وادى الأردن في المنطقة التي نحن فيها الآن ، قد أصبح محدد الشكل والمسار وفقيرا جدا في غطائه النباتى ، وقد قطعنا هذه المنطقة في الساعات الأولى من النهار ، وكانت أعداد كبيرة من الطيور الجارحة تحلق وكان تحليق أحد النسور الضخمة منخفضا فوق رأسي ، فأطلقت صوبه طلقة فهوى مرفرفا بجناحيه بتثاقل بين الخيول .

وكان علينا بعد ذلك أن نصعد أنفا مرهقا ناتئا للجبل ، وعندما وصلنا للحيد انكشف أمامنا منظر رائع ، فقد أصبح وادى الأردن أعرض ، اذ أصبح في امكان المرء أن يرى مساحات أوسع من السهل وحتى المنطقة التلية بجوار بحيرة طبرية Tiberias حيث الجبال الجميل تكوينها عن يمينها وشمالها ــ وكانت هذه الجبال تحجب عنا رؤية المناظر الى الشمال منها ــ وقمم جبال لبنان الشامخة وحقول حرمون الثلجية الواسعة ــ يا له من تناقض ، لقد أرهقتنا الحرارة المرعبة التى لم نعان من حرارة مثلها الا فى وادى الأردن ، وفى الوقت نفسه كان أمامنا ــ على البعد ــ الجليد يتألق في قمة الجبل !!

وتوقفنا ــ للراحة ــ في هذه البقعة الطريفة . لقد قررنا أن نركب هابطين الى نهر الأردن ، لقضاء بضع ساعات على شاطىء هذا النهر المقدس ــ بينما تواصل القافلة طريقها الطويل الشاق ، واعترف لنا البدوى ــ بعباءته الطويلة التى يحركها الريح ورمحه فى يده ــ بصراحة أنه لا يعرف طريقا مباشرا يهبط بنا الى النهر ، وكان هذا البدوى قد أرشدنا ارشادا جيدا حتى الموضع الذى نحن فيه ، فقدرنا صراحته وانفصلنا عنه لنتلمس أسرع الطرق الى الشرق ، وجرى بى الحصان خببا قاطعا السهوب ، وكان على أن أتسلق بمشقة لأعبر بعض المسيلات ، ومن ثم وصلت الى بقعة بها عين ماء بين صخور منخفضة وبستان ذى شجيرات رائعة ، فتتبعت الغدير الخارج منها على طول شاطئه الصخرى المرتفع ، فوصلت

الى حافة الهضبة حيث وجدت منحدرا شديدا أمامى ، فلما وصلت لآخر المنحدر أدركت أننى فى مرج أخضر ومراع خصبة ، وكانت سعادتى فائقة أن نهر الأردن بمجراه الفضى كان يجرى بين هذه المراعى والمروج ، وكانت فى النهر ثنية واضحة فى هذه البقعة ، مكونا شبه جزيرة مغطاة بأشجار وشجيرات صغيرة تحت الأشجار الكبيرة ، لقد كان الغطاء النباتى هنا كثيفا ورائعا ، وأكثر كثافة وروعة من أى غطاء نباتى رأيته قبل الآن • وعند حافة هذه الغابة وفى ظل أشجارها وشجيراتها المتطرفة غير البعيدة عن المروج والمراعى ، تركنا خيولنا ترعى وتناولنا غداء متواضعا من خبز ولحم بارد ، بعد أن استحممنا فى الأمواج المندفعة الباردة • وفى هذا الموضع ـ كما فى أى موضع آخر ـ احتفظ نهر الأردن بطبيعته كنهر جبلى وراح ينثر الماء على الصخور التى تحفه وبينها ، وبعد هذا الغداء المتقشف قررت أن أتفحص الدغل الكثيف وأن نقوم باثارة الطرائد لفترة وجيزة •

النصف الأول لشبه الجزيرة مغطى بالشجيرات ـ الواحدة منها أطول من قامة الرجل بقليل ، والأرض مغطاة بكثافة بنباتات كبيرة أوراقها ، متنوعة أنواعها • وتحيط النباتات المتسلقة بالأشجار فشكل الغطاء النباتى بمختلف عناصره كتلة خضراء كثيفة يصعب اختراقها ، لأن كل خطوة داخل هذا الدغل كانت تحتاج الى أن يستخدم المرء كل قوته •

وبعد أن تعبر الجزء الأول من الدغل بنجاح تصل الى منطقة خالية تقسمه (أى الدغل) الى نصفين ، وهنا وجدت فى الطفل عددا كبيرا من آثار الحيوانات : آثار نمور وآثار حيوانات الوشق والنمور المتوحشة وخنازير برية وحيوانات الشيهم (النيص) ، والذئاب وحيوانات ابن آوى ونوعان من الأيائل• وأثارتنا كثيرا تلك الآثار الشبيهة بآثار الأرانب

وآثار الأيائل السوداء ، وقد وجد هر راث Herr Ra'th
ـ كما قال ـ في طريقه المنحدر الى نهر الأردن ، في أحد
المسيلات أيلا صغيرا بقرنين قصيرين •

والجانب الثاني من الدغل أيضا عبارة عن شجيرات
ملتفة ذات طابع مداري تماما ، وتنمو تحت أشجارها نباتات
كثيفة يصعب اختراقها ، وقد حثتني كثرة آثار الحيوانات
على أن أحاول اثارة الطرائد من مكامنها • وكان هذا لحسن
الحظ • فأوقفت أحد الرفاق في المنطقة الفاصلة الخالية من
الغطاء النباتي الكثيف عند الموضع الذي تتوفر فيه كثير
من آثار الحيوانات ، وجعلت الجنود الأتراك وبعض الخدم
يثيرون الطرائد من مكامنها تحت اشراف مساعد الصيد
التابع لي • كانت النباتات تحت الأشجار العالية ، كثيفة جدا
حتى اننا لم نفكر في محاولة مسحها بمطاردة الطرائد بها ،
فقد أدركنا أن اخراج حيواناتها من جحورها أو مكامنها في
هذه المنطقة أمر لا نتيجة له • ولاحظت في هذه الغيضة زوجا
من طيور الزقزاق وبعض الحدوات •

لقد أسرعنا الآن عائدين الى خيولنا فوجدناها مسرجة
فركبناها عائدين الى حافة الهضبة ، وكنا قد لاحظنا ونحن
في المناطق المنخفضة سديما مظلما على نحو خاص ، يغشى
السماء ولكننا لم نكن قادرين على تبين شكله ، ولما وصلنا
للقمة اتضح لنا بشكل جلي ، لقد كان السهب كله ـ من نهر
الأردن حتى السفوح الشرقية للتلال ـ ملتفا بسحب الدخان
التي تظهر بين سوادها الحالك ألسنة اللهب • لقد كانت
المنطقة المغطاة باللهب والدخان هي المنطقة التي اجتزناها
بخيولنا صباحا ، لقد أصبحت الآن طوفانا من اللهب والدخان،
فحشائش السهوب تحترق بسرعة شديدة لا تصدق ، وكان
بامكاننا أن نقدر ـ من دقيقة لأخرى ـ اتساع رقعة الحريق
بملاحظة اقتراب عمود الدخان الذي بدا وكأنه يتتبعنا •

وقد ركب في مقدمة ركبنا يوسف ــ وهو ضابط فارسي تركي من مواليد تركستان ، وهو رجل قوى ذو لحية داكنة يحمل في يده كرباجا (سوطا) رمزا للسلطة ــ وذلك ليدلنا على أقصر الطرق · لقد ركضت خيولنا خببا بشـــكل رائع قاطعة السهوب يتبعها حريق كبير · انه مشهد قلما تشـــهده القارات الأخرى بالدرجة نفسها ، وقد اندفع خنزير برى هاربا من الحريق مثلنا ومر عـلى بعـد خطـوات قليلة من حصاني ·

كانت طبيعة الأرض تساعد الخيول على العدو ، فوصلنا سريعا عبر السهوب وعبر منطقة ذات أشجار شوكية آذتنـا أشواكها كما آذت الخيول ، وبعد ساعتين بدأت طبيعة المنطقة تتغير ، فأصبح الـوادى أكثر عرضـا · وارتفعت التــلال الخضراء الصغيرة وسطه مغطاة بالشجيرات والشعير القصير · أما ناحية الشمال فقد حجبت عنـا الجبـال الجميلة رؤية ما خلفها : أنوف جبال الكرمل ، والجبال المحيطة بالناصرة وجبل طابور (تل طابور) الشامخ بهيئته المحددة وجبــال لبنان وجبل حرمون المجلل بالجليد وجبال بحيرة طبرية ، والى الشرق مرتفعات الجولان ، كل هذه الجبال كان يمكن رؤيتها وتمييزها ، ومررنا في طريقنا بمقبرة بدوية صغيرة ، وقد أضـفت عليهـا أشـجار الجميز العتيقة مزيدا من الـوقار والحزن ·

واقتربنا شيئا فشيئا لهدف رحلتنا هـذه ، وهو قرية بيسان وما حولها من أراض جيدة تتخذ شكل دائرة واسعة ، انها منطقة مشهورة · وفي كل الاتجاهات كنا نجد غدرانا صغارا تنحدر من الهضبة تحف بها شجيرات كثيفة منخفضة وحشائش وبوص (غاب) ونباتات مستنقعية · وكنا نسمع صيحات الديوك السوداء (*) التى توجد هنـا بأعداد كبيرة تأتينا من كل جانب ·

(*) النص : blackcoak ولم نعثر على مقابلها العربى فى المعاجم الزراعية المتوفرة لدينا ــ (المترجم) ·

وثمة احجار مقطعة وحطام في وسط الغطاء النباتي اليانع الآن ، بالقرب القريب من القرية البائسة المكونة من عدد قليل من البيوت الحجرية ، وثمة شواهد على ما كانت عليه القرية من أهمية في عصور غابرة كما تدل على تراث المكان • لقد نسي كل هذا منذ فترة طويلة • ففي عصر التوراة سكن الكنعانيون هنا ، واستولى عليها بعد ذلك داود، ولما فتحها Scythians أسماها اليونانيون سكيثوبولس Scythopolis • وفي أيام الرومان كانت غنيـة ومزدهرة والتقت فيها كليوباترا مع جانيوس Jannaeus ، وتقدم بمباي Pompay من بيسان الى جبال يهوذا Judaea . وفي العصور المسيحية الباكرة كانت بيسان مقرا للاسقف كما كانت مشهورة باعتبارها محلا لميلاد باسيليدز Basilides وسيريلوس Cyrillus . وقد هزم صلاح الدين بيسان واحرقها وسواها بالأرض ففقدت ـ والى الأبد ـ نظمهـا وقوتها ، ولم تقم لها ـ بعد ذلك ـ قائمة •

وآخر بقايا المسرح القديم وبعض المعابد وكثير من الأعمدة البازلتية المشيدة بين الشجيرات وحشائش الأراضي المستنقعية ، ما تزال قائمة يسمع حولها نقيق الضفادع وجعارين الطين • وفي هذه القرية (بيسان) البائسة القذرة يبدو السكان وكأنهم في مجاعة الى جانب الجدران الحجرية الكئيبة ، ويجوس الأطفال والكلاب في الأراضي السبخة المشبعة بالمياه • لقد وجدنا معسكرنا مقاما بالفعل ومرتبا أحسن ترتيب ، في الجزء الشمالي من القرية ، وبالقرب منه مسيل يهبط بشدة ، وقد انبجست منه عين خرج منها غدير راح يجري مرحا بين الصخور والشجيرات وأشجار الجميز بفروعها الممتدة ، ورأينا هنا آثار الحمامات الرومانية محفورة في الصخور • وعلى مستوى أعلى من معسكرنا ـ الى الغرب من القرية ـ توجد الهضبة ومنطقة الينابيع •

وعند وصولنا ذهبت — ذات مرة — مع بدوى صياد ، كان ينتظرني الى جوار خيمتي — الى المستنقعات والاراضى السبخة . لقـد كان المـاء يسيل في كل مكان وبدت الارض وكانها قطعة كبيرة من الاسفنج . فالغاب (البوص) والبردى والشجيرات ترتوى بوفرة من الأرض السبخة . ودلت كثرة اثار الخنازير البرية ، وعملية اثارة الطرائد بشكل ناجح على وفرة الطرائد في هذا المكان ، فقد كان العمود الروماني قد اعتراه كثير من التدمير بسبب الخنازير البرية ، ففى كل مساء تاتى الى هذا العمود لتحك جلدها به اذا لم تكن الاشجار نامية بشكل كاف . ورغب الى البدو أن أختبىء خلف الدغل وأنتظر قدوم هذه الخنازير ، لـكننى لم أرغب أبدا فى أن أبقى فى هذه السبخة النتنة حتى الغروب فعدت للمعسـكر بسرعة .

كانت القافلة الـكبيرة تبدو مضطربة نـوعا ما ، فقد انطرحت الخيول والبغال مرهقة تماما حول المعسكر ، ولم يكن الرجال فى حالة أفضل كثيرا — وكل هذا نتيجة المسـير المستمر طوال النهار وثقل وطأة الهواء فى هـذه المنطقـة السبخة . وبعد أن تناولنا وجبتنا أوى كل واحد منا مرهقا متثاقلا الى خيمته .

وفي العاشر من أبريل — وهو يوم أحـد السعف (*) ، عم المعسكر النشاط عند شروق الشمس ، فجهزنا الخيمـة الكبيرة لتكون كمصلى (كنيسة صغيرة) وزيناها بقدر ماتتيح الامكانات ، وأقام القسيس الملحق بالقافلة القداس وبارك السعف الذى وزع على كل المسيحيين فى القافلة .

وبعد الافطار رتبنا أمورنا للخروج للقنص ، واقترح بعض الرفاق أن يجولوا جولة سريعة فى المنطقـة الواقعـة

(*) وهو يوم الاحد الذى يسبق الفصح وفيه تحيى ذكرى دخول المسيح (عليه السلام) ظافرا الى بيت المقدس حيث استقبله الناس وهم يحملون سعف النخل — (المترجم) .

شمال المعسكر ، أما أنا والدوق الكبير فقد رافقنا بعض بدو المنطقة — وكانوا ذوى وسامة ومنظرهم متميز — لقنص الخنازير البرية في اتجاه نهر الأردن .

ومررنا خلال القرية الى المنحدر الشرقي للهضبة وهبطنا خلال غابات كثيفة ومناطق مستنقعية ، فوصلنا لغدير كان شاطئاه منحدرين ، ودل بطن واديه الصغير — بما فيه من خضرة — على أننا سنحظى بصيد وافر كالذى حظينا به في الأيام الأخيرة في وادى الاردن مع سالم . وعلى أية حال، فقد اكتشفنا — بعد محاولات عديدة غير مجدية — أنه لا البدو ولا الكلاب بقادرين على التغلغل في هذه الغابة الكثيفة ، ومن ثم فقد واصلنا مسيرنا لنقطع مسافة طويلة عبر السهوب الى منطقة سبخة قال البدو أنها ملائمة لأهدافنا . وفي حشائش السهوب استطعنا اصطياد بعض السلوى وسربا من طيور الزقزاق ، وشيئا فشيئا وصلنا للأرض السبخة التي بدت واسعة ، وقد نبتت فيها الشجيرات التي ظهر من بينها حيوانان صغيران بشكل ملحوظ — الواحد منهما أصغر من الأيل ولونه أصفر ، وله قرون كقرون الظبي وحركته رشيقة ، وله ذيل كثيف كذيل الأيل الآدم (الأسود) . ومما يؤسف له أنهما كانا بعيدين فكان اطلاق البنادق عليهما غير مؤثر . وكانت حواف الأرض السبخة مغطاة في بعض الأماكن بالمستنقعات والحشائش السميكة الطويلة هي الحشائش السيفية (حشائش سيف الغراب) ، وقد اصطدنا في هذه الأرض الرطبة بعض طيور الدراج (بتشديد الدال وفتحها) الجميلة ، وأنثى واحدة من الطير نفسه بلونه البني الفاتح، ولم تكن تشبه طيور التدرج (بتشديد التاء وفتحها وضم الراء) (*) .

وأرسلنا الدوق الكبير — الآن — للجانب الأبعد من هذا الدغل المكون من بوص (غاب) كثيف أصفر ، بينما بقيت

(*) طائر ذيال شبيه بالحجل Phaesant (تدراجي التسهايي) .

آنا والبدو لنتغلغل فيه من ناحيتنا • لقد كان البوص والبردى أطول من قامة الرجل وغصنا حتى الركب فى المستنقعات وفى بقايا النباتات المتعفنة • وبعد أن سرنا سيرا مرهقا طويلا فى هذه الأرض التى تعافها النفس والمليئة بجمارين الطين، وصلت لمكان تقل فيه كثافة النباتات فوقفت فى الماء ، وكان على كما وجهنى البدو أن أنتظر حتى يحين وقت المطاردة • آلاف مؤلفة من حشرات المستنقعات المؤذية التفت حولى • لقد كانت ـ والحق يقال ـ بقعة مؤذية مقززة ليس من السهل على أن أنساها • وناضل البدو لاثارة الطرائد بين النباتات فى كل اتجاه لكن جهودهم ذهبت هباء • وسمعنا صوت خنازير برية تهشم النباتات الكثيفة ، لكن أيا منها لم يبرح مخبأه ، كل ما فى الأمر أن بعض طيور البلشون حلقت فوق رءوسنا • وسعيت للخروج من هذا المكان المرعب بأسرع ما يمكن ، فقد شعرت أننى استنشقت كثيرا من بخار عفن المستنقعات والمخلفات النتنة ، وقبيل المساء كان على أن أعانى نتيجة هذا • وسرعان ما عاد الدوق الكبير أيضا من الجانب الآخر للمستنقع بسبب فساد الهواء ، فركبنا خيولنا التى كان فرديناند الممتاز قد أتى بها ، وركبنا عائدين •

وقد أصبنا مرات عدة طيور الدراج (بتشديد الراء) فى البردى الطويل • لقد كانت خيولنا تسير فوق حشائش السهوب ورغبت أن أجرب كيف يبدأ الحريق ثم ينتشر بسرعة ، فرحت ألقى بعض أعواد الثقاب المشتعل بينما حصانى منطلق ، وفى ثوان قليلة شب حريق هائل وراح ينتشر بسرعة شديدة ، حتى اننا اضطررنا لاطلاق العنان لأفراسنا مخافة أن يلحق (الحريق) بنا • وفى اليوم التالى كان يمكننا رؤية هذا الجزء من السهوب ما يزال غارقا فى سحب الدخان • وعدنا سريعا الى بيسان فوجدنا باقى الرفاق قد وصلوا ومعهم بعض الطرائد •

وبعـــد أن تناولنـا وجبتنـا مارش بعض البهلوانات المصريين rope dancers العابهم أمامنا ، وكانوا يسافرون مارين ببيسان • ورأينا منهم بعض الألعاب السحرية بعضها تنجح وبعضها أقل درجة ، كما رأينا امرأة ـ بينهم ـ رقصت رقصة النحلة وهي رقصة شـهيرة في مصر ، وبعد الظهـر غادرنا ـ مرة أخـرى ـ معسـكرنا وانتشرنا بين الأعشاب السيفية (اعشاب سيف الغراب) المنتشرة بالقرب من القرية وكانت طيور الدراج لا تفتأ تغرد بها طوال النهار ، وكان من السهل اطلاق بنادقنا على هذا الطائر الكبير الجميل ، ذي المذاق الطيب لذا ، فهو من أفضل الطيور التي يرغب المسافر في اصطيادها • وأخذ كل واحد من الرفاق بعض البدو أو الخدم معه ، الى البقعة المحددة له لاصطياد هذا الطائر • لقد قسمنا بيننا أفضل البقع بالقرب من القرية في دوائر محددة حتى لا تتداخل طلقاتنا •

وبينما كنت في ذروة نشـاطي أحسست فجـأة بدوار عنيف كما أحسست كأن شللا أصاب قدمي • صداع عنيف • كما أحسست ـ رغم أن حرارة الجو شديدة ـ برودة شديدة تعم جســدي كله وكأنني في جـو بارد ثلجي ، فاضطررت للزحف ، والعودة للمعسكر بأسرع ما يكـون • انها الحمى التي يمكن أن تصيب الانسان في مثل هذا الجو في غضون دقائق قليلة ، فتحولت من رجل سليم معافى الى رجل مريض • كانت كل عضلاتي تؤلمني ، وأية حركة أقوم بها تسبب لي ألما كذلك • وعاد باقي الرفاق الى المعسكر ومعهم عدد طيب من طيور الدراج • وخلال الليل لدغت عقرب كبيرة سيىء الحظ كورنسكي ، ثم لدغت بعـــد ذلك ســاخس Sachs . لقد تلقى كرونسكي الجرعة القـوية الأولى من ســم هــذه الحشرة البغيضة • فظهرت عليه أعراض تسمم حادة سببت أقصى درجات القلق • وفي صباح اليوم التالي عم الاحباط سائر المعسكر ، فكان كل شخص فيه يعاني على نحو أو آخـر نتيجة سوء المناخ ، وكنت أنا وكرونسكي واهنين بائســين

لابد من أدراجنا فى قائمة المرضى، وسقط بعض الخدم أيضا مرضى نتيجة سوء المناخ • وكانت كل لحظة تهدد المعسكر باضافة مرضى جدد بالحمى وعم القافلة خوف شديد مسعور من العقارب الآسيوية •

لقد كانت خطتنا الأصلية تقضى بأن نمضى هذا اليوم أيضا فى بيسان، ثم نتجه الى بحيرة طبرية ومنها الى الناصرة ، وأن نقضى وقتا فى توقير الأسبوع المقدس (أسبوع الآلام) حتى أحد عيد الفصح • ولكى نهرب من الحمى قررنا الآن أن نقضى الليلة التالية على قمة جبل طابور ، وأن نسافر نهار اليوم التالى الى حيفا، حيث تنتظرنا سفينتنا ميرامار التى تم استدعاؤها من بيروت، لقد كانت أمامنا ــ اذن ــ رحلة طويلة سنبدؤها مباشرة بعد الافطار • واستطعت بصعوبة أن أستوى فوق حصانى من شدة الوهن ، وستمضى فترة طويلة قبل أن أنسى ذلك • وكان علينا ــ فوق ذلك ــ أن نمر خلال مناطق كئيبة غير شائقة ، فى الشمس الحارقة • لقد تركنا الآن السهوب الشبيهة بسهوب الأردن لنصل الى حدود مستوية طويلة وأودية لا متناهية • مسطحات صخرية ، وشجيرات قليلة تتخلل بعض الحقول التى لم تزرع زراعة جيدة • ومررنا بقطعان من الجمال والماعز • المنطقة البدوية وراءنا ، والسكان هنا يلبسون ملابس متباينة ، فالتباين فى اللباس هنا أوضح من ذى قبل ــ ففى المناطق الشمالية ــ ان جاز التعبير ــ نجد الطراز الأسيوى فى اللباس أكثر وضوحا مما هو فى يافا • لقد لاحظنا عمائم ضخاما وعباءات واسعة يحركها الهواء ، ومعاطف مزركشة ، وأحذية متميزة حمراء •

كانت الرحلة مملة ، وكان عزاؤنا الوحيد أن نغض الطرف عن المناظر البائسة حولنا ، لننظر الى الجبال الجميلة ، وأخيرا وصلنا الى سفح تل طابور ، ذلك الجبل القائم بمفرده دون سلسلة ينتمى اليها ، كما أن سفوحه شديدة الانحدار • وكانت كل منحدراته من السفح الى

القمة مغطاة بألواح حجرية وكتل صخرية غير ثابتة وشعير (شوفان) برى متقزم • وتعرج الطريق على جانب التل مارا بقرية بائسة من عدة بيوت صغيرة حجرية ، وبدا من غير المفهوم أن تستطيع الخيول التحكم فى نفسها لاجتياز هذه المنطقة ، وبين الصخور نمت شجيرات دائمة خضرتها ولم يكن منظر الشعير القصير كثير العقد جذابا • ان نوع الغطاء النباتى هنا هو الغطاء النباتى لساحل البحر المتوسط • لقد تركنا وراءنا بالفعل الغطاء النباتى الآسيوى الجذاب • وكان ركوبنا فوق قمة تل طابور بعد الظهر ــ بعد هذه الرحلة الطويلة ــ آمرا باعثا على السرور شيئا ما - ووصلت خيولنا المرهقة آخيرا ــ بعد انزلاق وتعثر ــ الى الجدار الخارجى لدير صغير • لم آكن بقادر على الاحتفاظ بعينى مفتوحتين لفرط ما آلم بى من ارهاق، فقد كنت لاأزال أعانى من آثار الحمى • وكان الدوق الكبير قد ألم به المرض من جراء الركوب لفترة طويلة ، وفى الليل هاجمته حمى كالتى هاجمتنى بالأمس ــ لكن بشكل أقسى •

وكانت خيمة واحدة قد تم ارسالها لتسبقنا الى تل طابور ، أما بقية القافلة فبقيت فى الناصرة فلم يكن من الممكن حث البغال المرهقة على صعود الجبل مع بقائها حية فى الوقت نفسه • وقد اضطجعنا فى هذه الخيمة لننام فى انتظار الطعام • لقد تركنا الآن هواء الأردن الكئيب الرطب ــ لوقوع المنطقة تحت سطح البحر ، وأصبحنا الآن فى منطقة جبلية هواؤها عليل ونسائم مسائها منعشة وبرودة ليلها ثلجية ، بينما نهارها حار •

كانت المناظر البعيدة تبدو رائعة من فوق تل طابور ، فالى الجنوب الشرقى يمتد سهل الأردن الواسع وقد غطاه بخار الهواء الثقيل وحفت به الجبال من الجانبين ، وكانت سلسلة الجبال الغربية (فى الضفة الغربية للنهر) خضراء

داكنة مع عدد لا يحصى من القمم والأشكال المخروطيـة ، وكانت الجبال الشرقية شامخة جرداء ـ انها موطن القبائل البدوية النبيلة · والى الشـمال الشرقى بدت بحيرة طبرية كمرآة صافية تحفها التلال · والى الشـمال جبـال لبنـان وحرمون يجللها الجليد ، والى الأدنى منا ـ عند سفح جبـل طابور توجد المنطقة التلية التى تقطعها الأودية والمسيلات التى تغطيها الأحجار والشعير البرى والتى تمتد حتى الجبال · الكتلة الصخرية لجبل الكرمل او جبل مار اليـاس Mar-Elias الشامخ الذى يقف متفردا غير مرتبط بسلسلة جبلية ·

وفى ساعات المساء استمتعنا بهـذا المنظر الجميل · وكانت بعض النسور الذهبية والصقور الملكية تدور معلقة فوق الوديان الهادئة العـامرة بالأشـجار · هدوء تام يخيم حولنا ، فليس من صوت سوى صوت جرس الدير الواضـح ينادى بالسلام المريمى (تحية جبريل للعذراء : سلام عليك يا مريم) فى هذه البقعة النائية الخالية · وبدأت أحس أننى قادر على أن أدب ببطء حول قمة التل لأتفقد المبانى والآثار · كان الدير اليونانى يقع فى مواجهة دير لاتينى (كاثوليكى) نصبت فى ساحته خيامنا ، وبين هذين المبنيين ، وحولهمـا توجد أسوار آيلة للسقوط وأحجار وبقايا تحصينات قديمة ـ اصبحت النباتات تنمو ـ الآن ـ بينها · ولفتت انتباهى بوابة ذات قمة مستدقة تحظى بالصيانة ، والى جوارها توجد خرائب (بقايا) من كل العصور مختلفة صـفاتها ، كبقايا قلعة تبدو عائدة للعصور الوسطى العربية ·

وفى العهد القديم نجد تل طابور يمثـل الحد الفاصل بين قبيلة يساكر Issacher وقبيلة زبولون Zebulon ، وقد جمع Deborah جيشا هنا ، ومن هنا هبط العبرانيون الى السهل وذبحوا Sisera قائد ملك هازور Hazor المدعو جابن Jabin · وكانت مدينة تسمى ايتابيريون Iabyrion تقع على قمة تل طابور تحت حكم آنتيوكوس الكبير Antiochus the great

وفى سنة ٥٣ الميلاد شن جامبينيوس Gambinius حربا ضد اليهود ، وقد جعل جوزيفوس Josephus من تل طابور قلعة حصينة ، وفى عهد فسباسيان Vespasian م ذبح عدد كبير من الاسرائيليين على يد قائده بلاسيدوس Placidus •

وقد ارتبط هذا الجبل ـ دائما ـ منذ عصور المسيحية الباكرة بتجلى المسيح (عليه السلام) ، لذا فهو جبل يحظى بالتوقير • وقد وصفه كل من أوريجن Origen وجيروم Jerome ، وقد شيد الصليبيون أول دير فوقه ، الا أن المسلمين دمروه على آية حال •

وفى سنة ١٢١٢ بنى الملك العادل ـ أخو صلاح الدين ـ قلعة فوقه ، حاصرها الصليبيون ـ بعد ذلك ـ دون نتيجة ، ثم بمرور الوقت دمرها المسلمون أنفسهم لتضاؤل أهميتها ، ولا ترجع الأديرة الحالية هنا لأزمنة قديمة وان كان قد تم تشييدها على اطلال الأديرة الأولى •

وكل المنطقة المحيطة بتل طابور مليئة بالذكريات التاريخية لذا ، فهى منطقة جذابة تحظى من المرء باهتمام مضاعف • وبالقرب من تل طابور يوجد تل آخر دائرى يرتفع من وسط واد صغير أخضر ، حقق صلاح الدين عنده أروع انتصاراته فى الثالث والرابع من شهر يوليو سنة ١١٨٧ ، ومن يومها بدأت القوى الصليبية فى الانحدار النهائى • وتم أسر الملك جاى Guy ملك لوزجنان Lusignan وآخرين كثيرون غيره ، وبيع الفرسان للعبيد ، وتم اعدام فرسان الهيكل Templars ورهبان القديس يوحنا جميعا ، وقتل صلاح الدين بنفسه رئيس فرسان الهيكل • وهذا التل نفسه يشار اليه باعتباره الموضع الذى ألقى فيه المسيح عظاته (عظات الجبل) ، كما يشار اليه كموضع لمعجزة الخبز والسمك Loaves & fishes •

وفي المساء تناولنا عشاءنا في غرفة واسعة بالدير ثم أوينا الى فراشنا مبكرا للراحة . كان الدوق الكبير يعاني كثيرا من الحمى وتناول قدرا كبيرا من دواء الكينين . وفي ١٢ ابريل استيقظنا مع شروق الشمس . لقد ولت أيام الاقامة في الخيام واسفت كثيرا لهذا . وهبطنا الجبل على الأقدام ، فقد كان الهبوط راكبين مستحيلا ، كنا بما فينا المرضى والناقهين نتحرك ببطء فوق الأحجار والدبش وبين الشعير البري . كان الهواء باردا ومنعشا ، كما كانت الجبال حولنا ، وقد لمستها أشعة الصباح تتألق بتدرجات لونية فاتنة ، وبعد مسير مرهق وصلنا أخيرا للوادي وركبنا خيولنا .

وامكننا أن نعبر فوق ظهور جيادنا سلسلة تلال تغطيها الصخور والشجيرات ، ومن منحدراتها المقابلة أمكننا أن نلقي نظرتنا الأولى على الناصرة الواقعة في بطن واد صخري . ووصلنا لطرف المدينة الصغيرة البعيد بالمرور في الشوارع الضيقة . وكان الطبيب قد منعني — بسبب الحمى — من دخول اي سراديب باردة ، وأية أماكن ضيقة ، لذا لم أكن قادرا على زيارة الكنيسة ومصلى البشارة (المقصود بشارة الملك جبريل لمريم بحملها بالمسيح) الشهيرة وكل الأماكن المقدسة .

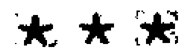
وتذكرنا العمارة في الناصرة بعمارة بيت لحم ، ويدين السكان بديانات مختلفة ، ويختلفون في ملامحهم عن أهل جنوب فلسطين فألوانهم أكثر بياضا ، وأزياؤهم — رجالا ونساء — جميلة جدا ، وكانت الخيمة المعدة لطعامنا قد نصبت في مكان مكشوف واستراح جانب من أفراد القافلة على الحشائش المحيطة بها . وسبقنا العدد الأكبر من البغال محملا بالأمتعة الى حيفا . تناولنا افطارنا سريعا وركبنا حناطير ذوات أسقف منخفضة تجرها خيول صغير حجمها ، وقد عمل رجل سويسري منذ سنوات كثيرة مضت في تنظيم هذه العربات (الحناطير) بين الناصرة وحيفا . كان الطريق

ـ ان جاز اطلاق هذا الاسم عليه ـ مريكا فقد معالمه ، وراحت العربات (الحناطير) تكسر عظامنـا ، فمرة ترتفع ومرة تنخفض فوق الصخور والأحجـار • وعبرت عربتنـا بعض حيود التلال المغطاة بمساحات من الشعير غير الكثيفة وبأشجار دائمة خضرتها • وفي الوديان الكائنة بين هذه التلال توجد مروج سبخة للغاية كانت العربات مهددة بأن تسـيخ فيهـا (تنغرس فيها) • كان الطقس ـ لحسن الحظ ـ لطيفا غـير ممعن في حرارته ، وكانت المنطقة جميلة ، ونمت أشـجار كثيرة نموا حسنا ، وكثرت الزهور ، وبعـد مسـير طـويل وصلنا لسهل عريض يمتد على طول الخليج تقع عنـد آخـر نقطة في شماله مدينة عكا Akha أو بطولمياز Ptolemias الشهيرة ، أما الرأس الجنوبي مع جبل الكرمل الذى ينحـدر بشدة نحو البحر ، فيتاخم حيفا • والسـهل نفسـه مزروع زراعة جيدة ، وعـلى ضـفاف نهـر صـغير هو نهر المقطـا El-Mukatte نجد أشجارا مثمرة ، لقد أرهقنا الطريق وسبب لنا آلاما ، بسبب كثرة حفره في آخر ساعة نقضيها في آسيا •

سـحب كثيفة في الأفق ، والشـمس غائمة والـرياح الباردة تهب من البحر وكأنما قدمت من أوربا الباردة ترحب بعودتنا الوشيكة • لقد كان علينا الآن أن نلقي ـ بشغف ـ نظرة أخيرة عـلى قوافل الجمـال والمـاعز بآذانه الطويلة ، والخيول العربية والبشر بعباءاتهم الواسـعة ، والمـلابس البهيجة والعمائم الكبيرة والمنازل الشرقية والمقابر الآسيوية وكل حركات الحياة الشرقية ، التي شوقتنا وأمتعتنا لفترة طويلة والتي كنا قد بدأنا نتآلف معها • لقـد راح كل منـا يحاول حصر مايراه في ذاكرته حتى اذا ما عاد لأوربا ، حيث البرودة وحيث العواصف الشمالية التي يعاني منها الأوربيون البؤساء ـ فان هذه المناظر الشرقيـة ستمثـل أمام عيـون

الذاكرة ، فيشعر الانسان وكأنه عاد للشرق مهد الانسانية ، وحيث فلسطين ، والشرق المقدس الذهبى العظيم ٠

وهبطنا في طريق ضيق من طرق حيفا لنصل سراعا الى الميناء ، ومدينة حيفا مشيدة على درجات المنحـدرات الحـادة لجبل الكرمل ٠ خطوة أخرى في الأرض الشرقيـة ، نظـرة أخرى أخيرة على الحياة الشرقية المبهجة ، وانتزعنا أنفسنا انتزاعا من الشرق ، وحملنا قارب ــ راح يتمايل مع الموج ــ الى مرسى سفينتنا ميرامار ٠



الفصــل العــاشر

العــودة ــ المــرور بكانديا ــ زانطة ــ قناة ايثـــاكا Ithaca ــ كورفو ــ تأخر اضطرارى لساعات فى كورفو ــ بوشى دى كاتارو Bocchi di Cattaro راجوسا ــ زارا ــ تريست ــ الرحلة الى فينا ــ نهاية الرحلة •

بدأت باخرتنا ابحارها قبل أن يسدل الليل ســدوله ، وغطت ظلال الليل تلال الساحل الأسيوى فألقت عليها غلالة من غموض ، وارتفع الموج يضرب سفينتنا ، وبدت سفينتنا غير مستقرة لساعات • وقضينا معظم الثالث عشر من الشهر فى هواء بارد فى عرض البحر • كانت السحب الكثيفة تجلل الســماء وعم الســكون فى ميرامار • وراح الركاب الذين لا يعانون مرضا يراقبون الموج من فوق ســطح الســفينة ، سارحين بأفكارهم فى بلاد الشرق العظيم • لا شك أن المرء سيغرق فى ذكريات الأيام السعيدة عندما يركن للهدوء •

وفى اليوم الموافق للخامس عشر من هــذا الشهر ظهرت لنا جزيرة كانديا بمناظرها الجذابة ، ومررنا بالقــرب من سواحلها متأملين جبل ايدا Ida الذى يغطيه الجليد • وفى اليوم التالى رأينا رأس ماتابان Matapan الجبل اليونانى ، وبعد الظهر رأينا زانطــه Zante ومررنا بين الجــزيرة والساحل اليونانى الرئيسى ، لنرى بعد ذلك قمم سيفالونيا المعتمة Cephalonia ، وفى نور القمر الرائع مررنا بقناة ايثاكا Ithaca الشهيرة ــ موطن أوليسيس Olysses ورأينا صخرة سابهو Sappho والجزر التى أحاطتها الأساطير

الاغريقية بهالة من القداسة • وفى بكور اليوم السابع عشر • دخلت ميرامار ميناء كورفو • وحيتنا جلجلة الاجراس • فقد كان هذا اليوم هو عيد أحد السعف بالنسبة لليونانيين . فقد كانت المواكب المزدانة والقسس بملابسهم الثمينة يتبعهم أهل البلاد بازياء جميلة ــ يتحركون على طول الشاطىء • وكان لابد من زيادة خزيننا من الفحم فأرسلنا لهذا الغرض مندوبنا الى خليج ايسا Ipsa ، ووضعنا قاربنا بجانب منزل صغير مطل على البحر وتسلقنا ــ خلال حدائق يانعة وحقول شعير الى القمة ، حيث ألقينا نظرة على الجزيرة الجميلة والجبال الألبانية المقابلة • وعندما عدنا الى ميرامار وواصلنا رحلتنا كانت فترة ما بعد الظهر هادئة . والهواء دافئا فاستمتعنا بمناظر الساحل الجميل ونحن نمر ازاءه •

وفى يوم ١٨ استيقظنا عند بونتا دسترو Runta d'Ostro .

ولأن معظم رفاق الرحلة لم يسبق لهم التعرف على بوشى دى كاتارو Bocchi di Cattaro . فقد أبحرت ميرامار بين جروف رمادية عالية الى كاتارو ذات الموقع الرائع ، وقمنا بنزهة قصيرة داخل المدينة الصغيرة وآثارت اعجابنا ملابس الفلاحين الجميلة المتباينة ، وبدا جذابا أن يستجم المرء فى هذه المنطقة الصخرية المرتفعة التى يقطنها جبليون شجعان لهم أخلاق الفرسان •

وبعد الظهر وصلنا لاكروما Lacroma ورست سفينتنا على هذه الجزيرة الصغيرة الجذابة • كان كل شيء فيها أخضر ومزهرا ، وتنسمنا ــ لآخر مرة ــ هواء الجنوب الحقيقى ونعمنا باشعة الشمس فى يوم ربيع حقيقى ، وجدفنا بقارب لنصل الى راجوسا ــ وهى دوبروفنيك القديمة السلافية ــ وتجولنا حول المدينة الثرية بقصورها ومبانيها الجميلة ، وقضينا الليل على سطح ميرامار فى ميناء جرافوزا Gravosa .

وفى التاسع عشر من هذا الشهر لم يكن البحر هادئا ، وكانت السماء غائمة وهبت رياح باردة وسقطت زخات من

المطر · ان الرحلة بين الجزر الدلماشية الجميلة جدا بشكل عام ــ لم تقدم لنا الا القليل من المتعة · وقد بقينا فى زارا Zara طوال المساء والليل ·

وفي اليوم العشرين بدأنا مبكرا من عاصمة دلماشيا ووصلنا تريست بعد الظهر ، والمطر ينزل والسماء عاجة بالسحب ، وقضينا يوما ممتعا هناك ، وغادرنا بعد ظهر اليوم الواحد والعشرين وودعنا ــ وداعا مؤثرا ــ قبطان السفينة ميرامار التى لم تخذلنا ، وكل العاملين معه ، وفى كارست Karst ألقينا نظرة مودع للبحر الجميل فستمضى منذ الآن فترة طويلة فى البر الأوربى ·

وانقضى الليل سريعا · فقد كنا أثناء الليل نحلم بالبدو على خيولهم العربية ، وبالمآذن الرشيقة ، والجبال الشامخة ، والصحراء الشاسعة والنيل المقدس وغابات النخيل المتموجة ، وأشجار الجميز ، وأسرار معابد ايزيس ، لكن أحلامنا السعيدة تلك سرعان ما بددها الواقع ، فقد استيقظنا فى سمرنج Semmering ، فاستقبلتنا بريح الشمال القارصة وثليج ، وقد تدثرت بعباءة من جليد · وفى فينا ، كانت السحب الكثيفة تحجب السماء ، واعترت المسافرين ــ الذين اعتادوا على شمس الجنوب ــ قشعريرة · انه مناخ الشمال الأوربى البارد الكئيب ·

وانتهت الرحلة وتفرق جمعنا ، لكن أفكارنا ظلت مرتبطة ارتباطا لا فكاك منه بالشرق البعيد ·

تحية لك يا هذا الشرق الذهبى العظيم المشمس !

اقرأ فى هذه السلسلة

احلام الإعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغامضة	ليستردبل راى
الرواية الانجليزية	والتر آلن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للاهرام	بيل شول وادبنيت
فن الترجمة	د· صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سيدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف . ع ادنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د. نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب في الكيمياء	د. فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د. روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم في مصر القديمة	أ . سبنسر
النحل والطب	د. ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د. ليفوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة	د. جون شندلر
الصحافة	بيير البير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن التشكيلى	د. غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د. رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د. محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج٠ دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة في الكون كيف نشأت واين توجد	د٠ جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريك
ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د٠ مصطفى عنانى
مختارات من الادب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف٠ س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س٠ م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د٠ سمبسون ونورمان د٠ اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د٠ انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر . بورر وميلتون جولد بنجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	أرنولد توينبي
قضايا وملامح الفن التشكيلي	د . صالح رضا
التغذية في البلدان النامية	م.ه. كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية	د . السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسي	توماس أ . هاريس
الدليل الببليوجرافي	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى آرمز
الثورة الاصلاحية في اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبي ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالي	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ في مصر	جاك كرابس جونيور
عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
تراتيم زرادشت	اختيار / د . فيليب عطية

السينما العربية	اعداد / موتى براج وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بول كولنسر
صناع الخلود	موريس بيير برايز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفريد ج٠ بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر فى ألف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د٠ ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ٠ ج٠ ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد ف٠ بيرتون
الحضارة الاسلامية	آدمز متز
الطفل (٢ جـ)	ارنولد جزل

افريقيا الطريق الأخضر	بادى أونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج • برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج • كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد ديبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف • م • بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليام • ه • ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب • ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستالين جين • سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج	عبد العزيز جاويد
الفيلم التسجيلى	محمود سامى عطا الله
الرومانتكية والواقعية	بانكو لافرين
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام
الحب	د • ليوبوسكاليا
كنوز الفراعنة	ت • ج • ه • جيمز
اطلالات على الزمن الآتى	د • السيد نصر الدين
الرواية اليوم	مالكولم براد برى
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٦/٨٤١٤

ISBN — 977 — 01 — 4912 — 8

عن القدس الشريف يحدثنا الأمير رودلف في هذا الجزء الثالث والأخير من رحلته. يصف لنا المقدسات المسيحية واليهودية، ولايعجب من بقائها مصانة موقرة طوال حكم المسلمين لأنه يرى أن الإسلام يضم الديانات السابقة عليه بين جناحيه، فهي أيضا مقدسات إسلامية. ويبدى لنا رأيه في كثير من الحكايات اليهودية المتعلقة ببعض المواضع في فلسطين. والحق أن الأمير رودلف منذ وطأت قدميه أرض الشرق وهو يسهب في وصف القداسة والدفء اللذين يشعان في أجواء المنطقة وقد أسقط الرجل كل ما قرأه في التاريخ علي ماراه على أرض فلسطين وعلي ما رآه من قبل في أرض مصر.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب